الدكتور عبد الرحمن علي الحجي

أندلسيات

برهان

دار الإرشاد
للطباعة والنشر والتوزيع
ص.ب: ٦٣٤٧ - بيروت

- الطبعة الأولى
- ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

هديــة المؤلف

مع أطيب التحيات

الإهداء

إلى الأنْدَلُس أرض البطولة .

حيث عَمَّرَ الإسلامُ قروناً ثمانية .

فنَعِمَتْ بالخير مِنْ فضْلِ تسامُحِه كافةُ الأجناس والأديان ؛

نبَتَتْ كلُّ العلوم برعايته ،

وترعرع الفن الرفيع تحت وارف ظلاله ؛

فكانت حضَارَتُه شامِخَةً ،

ومَنارُهُ هادياً ،

خلَّفَ تراثاً نافعاً ، نَدِيَّ الذكريات ،

لنا منها عِبْرَةٌ وعَبْرَة .

المحتوى

تقديم

هذه مجموعة مقالات وبحوث في عـــدد من الموضوعات الأندلسية ، أغلبها تاريخية ؛ كانت قد أُذيعت أو أُلقيت ، أو نُشرت في صحف ومجلات عربية ، والمُفضّل أن تجمَعَها دفّتا هذا الكتاب لتكون أيسر تناولاً . وقد عُدّل أو أضيف إلى بعضها ، كما زُوِّدَت بالمصادر . والأمل أن يفيد منها المعنيون بحقل الدراسات الأندلسية .

ولعل في هذا الجهد بعض الإسهام في خدمة تراثنا الإسلامي الرائع في الأندلس الزاهر .

ومن الله السداد والتوفيق .

الأندلس
في التاريخ الاسلامي *

تاريخ الأندلس – أيها السادة الأفاضل – عريض واسع ، وسأتعرض الى الخطوط العامة لهـــذا الموضوع وألقي بعض الأضواء – ولو خافتة – على هذا التاريخ . فان التاريـــخ الأندلسي تاريخ غني لا يمكنني في مثل هذه العُجالة إلاّ أن أقدم بعض المقاطع أو اللقطات التي يمكن أن تُنْتَظَم في عِقْد واحد لتعطي فكرة – ربما مقتضبة – عن هذا الموضوع .

وسيتناول حديثي اليوم – عن تاريـخ الأندلس – ثلاث نواحي : الناحية السياسية و الحضارية ، ثم أعرّج للحديث عما تبقـّى من تراث الأندلس الاسلامي قائماً حتى اليوم .

(*) هذا ملخص المحاضرة التي ألقيت في النادي الأهلي بالرياض (السعودية) في ٢٥ رجب ١٣٨٧ ﻫ / ٢٨ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٦٧ م . وقد نشر في جريدة (الدعوة) الاسبوعية التي تصدر في الرياض ، العدد ١٢٧ ، الاثنين ١١ شعبان ١٣٨٧ / ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧ .

ومن الجميل أن نُشير – أولاً – ونحن الآن في رَجب الخير أنه حدثت فيه أحداث تاريخية مهمة ، منها أن إسراء الرسول ﷺ ومعراجه كانا في ٢٧ من هــذا الشهر ؛ وأن تحرير بيت المقدِس بقيادة البطل المسلم صلاح الدين الأيوبي كان في ٢٧ من هذا الشهر سنة ٥٨٧ هـ / ٢ تشرين الأول (اكتوبر) ١١٨٧ م ؛ كما إن حملة طارق التي قادها لفتح إسبانيـا (الأندلس) كانت أيضاً في يوم الإثنين بداية شهر رَجب سنة ٩٢ هـ / ٢٧ نيسان (أبريل) ٧١١ م [١].

ولا بدّ من الإشارة إلى أن هذه الأعمـال الجيدة في الفتح الإسلامي كانت نتيجة للقوة المعنوية والإيمـان العميق بالدعوة الإسلامية وأهدافها، وذلك هو الأساس، إضافة إلى التسلح المادي والتنظيم التام والتخطيط الواعي .

فنحن فى معركتنا مع إسرائيل لم يكن يعوزنا السلاح ولا الرجال ، بل كان الذي ينقصنا هو الإيمان بإسلامنا . فمتى مـا ملكنا هذا السلاح (الإيمان) والإيمـان الواعي نستطيع يومها استرجاع فلسطين ونستعيد مكانتنا .

---

(١) انظر : إبن عِذاري ، البيـان المُغرب ، ٦/٢ ؛ فَرّوخ ، العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر المتوسط ، ص ٨٣ . قارن : المَقّري، نفح الطيب، ٢١٦/١ ؛ عِنان ، دولة الاسلام في الاندلس، ٤١/١ .

للأندلس – أيها السادة – وَقعٌ جميل وذكرى نديّة ، ولعلنا لمسنا جمال هذه الكلمة في موشّح ابن الخطيب :

جادك الغيثُ إذا الغيثُ همَى
يا زمانَ الوَصْلِ بالأندلُسِ
لم يكن وَصْلُكَ إلاّ حُلُما
في الكرى أو خِلْسَةَ المُختَلِسِ

ومدلول كلمة « الأندلس » جغرافياً : **هو كل ما كان تحت حكم المسلمين من شبه الجزيرة الايبيرية** . فلو تصورنا خطّاً أفقياً من أقصى شمال البرتغال عند نهر دُويره Duero يسير مرتفعاً إلى الشمال ثم ينزل إلى الشرق حتى جنوب بَرْشِلُونَة Barcelona على البحر المتوسط شمال مدينــة طَرّكُونَة Tarragona شمال نهر إبْرُه Ebro ، فما فوق هذا الخط يُمثّل إسبانيا الشمالية (المسيحية) وما يقع تحته ، حتى مضيق جبل طارق ، يُمثّل « الأندلس » أو إسبانيا الاسلامية . وليس الأندلس هو المنطقــة الجنوبية من إسبانيا أو شبه الجزيرة الإيبيرية . وإن كلمة « أندلسيا (أنْدَلُثِيّا Andalucia) » الإسبانية الحالية تشمل جنوب إسبانيا في التقسيم الإداري للدولة الإسبانية . ويخلط البعض بجعل الأندلس تشمل – في المفهوم التـاريخي الإسلامي – جنوب إسبانيـا فقط . فاصطلاح « الأندلس » يشمل كل البرتغـال الحالية تقريباً وأكثر

اسبانيا [١].

ويَعني الأندلس – حضارياً – ذلك التراث الضخم والتاريخ الشامخ الذي خلّفه المسلمون خلال ثمانية قرون ، مدة بقاءهم في الأندلس ، وكان لهم خلال ذلك نشاط ملحوظ في بقية أنحاء أوروبا ، ليس هنا موضع الحديث عنه .

إن عبور الإسلام إلى الأندلس يمثل عصراً جديداً، إذ يكون المسلمون قد دخلوا – بذلك – أرضاً جديدة عليهم ، تختلف عما سبق أن فتحوه ، في شَعْبها ومناخها. ولعل هذا الاختلاف كان أحد الأسباب التي أدت إلى أن يُغلَب المسلمون في معركة بِلاط الشهداء التي حدثت في فرنسا في مكان يعرف بـ « توربواتيه Tours أو Poitiers »، جنوب باريس بحوالي سبعين كيلو متراً. وكان قائد المسلمين في هذه المعركة والي الأندلس البطل عبد الرحمن بن عبدالله الغافقي ؛ وقائد جيش الفِرنجة ، الذي تجمّع من كافة مناطق الإمبراطورية الفِرنْجيّة ، هو شارل مارتل Charles Martel ، أو شارل المطرقة ؛ وكان ذلك في شعبان – رمضان سنة ١١٤ / تشرين الأول (اكتوبر) ٧٣٢ .

كان الفتح الإسلامي للأندلس (إسبانيا الإسلامية) بقيادة

(١) البكري ، جغرافية الأندلس وأوروبا ، ص ٥٩ ؛ فَرّوخ، نفس المصدر ، ص ٤٣ ؛ عِنان ، نفس المصدر ، ١/٥٠ .

طارق بن زياد في ٧١١/٩٢ ، حين عبر المضيق وتجمّع جيشه في الجبل الذي سُمّي باسمه ، ولا يزال كذلك وبكل لغات العالم Gibraltar . ولعل ذلك خير مكافأة لهذا البطل المسلم الذي لا نعرف عن مصيره كثيراً ، ثم فَتَحَ – مع موسى بن نُصَيْر – كل شبه الجزيرة الإيبيرية تقريباً في أربع سنوات ، حيث بقي الإسلام في تلك البلاد ثمانية قرون .

أولاً : الجانب السياسي

مرت الأندلس خلال قرونها الثمانية بأحداث كثيرة وعصور عديدة وتقلبت بين الضَعْف والقوة، القوة التي أخضعت كل الأعداء وجعلت كل دول العالم وحكامها تبعث بسفرائها إلى قُرْطُبة تطلب وِدّ خلافتها وتحرص على صداقتها ؛ والضَعْفِ المَهين الذي جعل المسلمين ، أيام ملوك الطوائف ، يستعين بعضهم على بعض بملوك إسبانيا الشمالية (المسيحية) . كما ترددت الأندلس خلال هذه القرون بين البطولة والإنهزامية ، البطولة من كل نوع وفي كل ميدان وبلغت من المكانة حيث أن حكام إسبانيا الشمالية يُحَكِّمونَ خِلافة قرطبة فيما شَجَرَ بينهم ؛ وانهزاميتهم التي دعت بعضَ حكام الأندلس إلى التنازل عن حصونهم وأرضهم والقبول بدفع الجزية لقاء وعود بمساعدات يتلقونها ضد خصومهم من الأقارب والإخوان . كان ذلك أيام الطوائف أو بعدها حيث انساق ملوك الطوائف إلى ممارسة كثير من التوافه.

من ذلك أن مَلِكَ سَرَقُسْطة Zaragoza من قِبل المرابطين، وهو أبو بكر بن تِيفَلْوِيت، كان في مجلس غناء وغنته إحداهن قصيدة لإبن بَاجه (الفيلسوف المعروف المتوفي سنة ٥٢٢ هـ) وكان مطلعها :

جَرِّر الذيل أيَّما جَرِّ
وَصِلْ الشُكْرَ مِنْك بالشكرِ

فطرب الملكُ الممدوح وصاح : « واطرباه » وشقَّ ثيابه وحلفَ بالأيمان المُغلَّظة ألاّ يمشي ابن بَاجَه إلى داره إلاّ على الذهب [1] . فخاف الحكيمُ سوءَ العاقبة فاحتال بأن جعل في نعله ذهباً ومشى عليه . **ولا شك إن مثل هذا الملك لا يصلح لادارة شئون أمَّة ، وبمثل هذه التصرفات وغيرها ضاع الأندلس الحبيب .**

ويُقَسِّم المؤرخون تاريخ الأندلس إلى عدة فترات :

١ ـ فترة الولاة : من بداية الفتح حتى مجيء عبد الرحمن الأول (الداخل) في ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م. وحَكَمَ الأندلس في هذه الفترة ، التي دامت حوالَيْ أربعين سنة ، عشرون والياً .

---

(١) انظر : حسن احمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٤٠٧ .

٢ ـ فترة الإمارة : وتمتد حتى قيام الخلافة الأموية في الأندلس على يد الخليفة العظيم عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٦هـ/٩٢٩م.

٣ ـ فترة الخلافة : وتمتد حتى سقوط الدولة العامرية في سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م ، أو قبل ذلك .

٤ ـ فترة ملوك الطوائف : وتمتد حتى قيام دولة المرابطين في الأندلس في ١٠٩١/٤٨٤ .

٥ ـ فترة المرابطين ثم الموحدين في الأندلس والتي تنتهي ـ تقريباً ـ بقيام دولة غَرْناطَة سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م .

٦ ـ دولة غَرْناطة التي سقطت على يد المليكين الكاثوليكيين (فردناند Ferdinand ملك أراغون Aragon وإيزابيلا Izabella ملكة قَشْتالة Castilla وليون Leon) في ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م . وبسقوط غرناطة ينتهي حكم الإسلام في شبه الجزيرة الإيبيرية .

وفيما يلي قائمة نسب حكام بني أمية في الأندلس :

قائمة نسب حكام بني أُمَيَّة في الأندلس

[1] عبدالرحمن الأول (الملقب بالداخل) بن مُعاوية بن هشام
(١٣٨ – ١٧٢ هـ / ٧٥٥ – ٧٨٨)

[2] هشام الأول بن عبد الرحمن الأول
(١٧٢ – ١٨٠ / ٧٨٨ – ٧٩٦)

[3] الحكم الأول بن هشام الأول
(١٨٠ – ٢٠٦ / ٧٩٦ – ٨٢٢)

[4] عبد الرحمن الثاني (الأوسط) بن الحكم الاول
(٢٠٦ – ٢٣٨ / ٨٢٢ – ٨٥٢)

[5] محمد الاول بن عبد الرحمن الاوسط
(٢٣٨ – ٢٧٣ / ٨٥٢ – ٨٨٦)

[5] محمد الاول بن عبد الرحمن الاوسط

[6] المنذر بن محمد ألاول
(٢٧٣ – ٢٧٥ / ٨٨٦ – ٨٨٨)

[7] عبد الله بن محمد الاول
(٢٧٥ – ٣٠٠ / ٨٨٨ – ٩١٢)
تولى الحكم بعده حفيدُه :

[8] عبدالرحمن الثالث (الناصر لدين الله) بن محمد بن عبدالله
(٣٠٠ – ٣٥٠ / ٩١٢ – ٩٦١)

[9] الحكم الثاني (المُستَنصِر بالله) بن عبدالرحمن الثالث
(٣٥٠ – ٣٦٦ / ٩٦١ – ٩٧٦)

[10] هشام الثاني (المؤيَّد بالله) بن الحكم الثاني
(المتوفي حوالي ٤٠٣ / ١٠١٣)

ويروي لنا المؤرخون بهذه المناسبة قصة مُؤثِّرة ، ذلك ان أحد ملوك غَرْناطة محمد الحادي عشر ، الملقب بـ « أبو عبدالله الصغير (بالافرنجي : بوبديل Boabdil) » ، حين رحل عن غرناطة متوجهاً الى فاس بالمغرب ، وكانت معه أمه عائشة ، تَوَقَّف عند مرتفع يُشرف على مدينة غَرْناطة اسمه « تل البَذول Padul » ونظر بحسرة باكية الى غرناطة الجميلة ، وأجهش بالبكاء وصاح : « الله اكبر » فقالت له أمه : « نعم ابكِ مثلَ النساء على مُلْكٍ لم تُحافظ عليه مثلَ الرجال » .

وهكذا ضاع الاندلس حيث تفككت وَحْدَتُه واستهان حكامه وجعلوا مصالحهم فوق كل شيء حين ألقَوْا بإسلامهم ظِهْرِياً .

بلغت الأندلس في عهد الخلافة ، أيام عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المُسْتَنْصِر ، قِمَّة القوة السياسية في العالم المعروف يومها . وتَقَرَّبَ الى الخلافة أقوى الحكام كالامبراطور أوتو الأول إمبراطور المانيا والبابا ، زعيم العالم المسيحي ، كلهم يَخْطبُ وِدَّه وصداقته . بل إن بعضهم يطلب التوسط في حل مشكلات معينة .

ونتيجة لهذا الاستقرار كان هناك الإنتاج الحضاري الضخم الذي أنتج لنا ذلك التراث الرائع في كل ميادين الحياة وكافة فروع المعرفة . ويوم سادت الفوضى وذهبت المُثُل ضاعت

وَحْدَةَ الأندلس ، وإن كانت الروح الإسلامية قد ظهرت في فترات متقطعة في أيام ضَعْف المسلمين فأرَتْنا صورة رائعة ناصعة وذلك مثل أيام المرابطين ومعركة الزَلاّقَة في ٤٧٩هـ / ١٠٨٦ م التي أظهر فيها المسلمون بطولات نادرة . **والاسلام – أيها السادة – صانع البطولات .**

ثانياً – الجانب الحضاري

شمل الإنتاج الحضاري الإسلامي عموماً ، والأندلسي على وجه الخصوص ، كل النواحي في العلوم والفنون والآداب ، فكانت كل هذه الميادين مزدهرة بانتاجها وبرجالها الأعلام . فكانت الأندلس – كما تعلمون – أَحدَ مَعابِر حضارة الإسلام الى أوروبا ، وعلى أساس منه قامت حضارة اليوم . فالأرقام الفرنجية الحالية مثلاً هي عربية ، ربما من أصل هندي طَوَّرَه المسلمون [1] .

ولم يكن التقدم الحضاري في العلوم أقل منه في الآداب إن لم يزد ، فان ملك ليون Leon (دويلة إسبانيا المسيحية) قد عُزِل من مَنْصِبه لأن سمنته غدت مُفْرِطة منعته ركوب الخيل وبالتالي من قيادة المعارك ومن أعماله الأخرى . ولم يفلح هذا الملك (شَانْجُهْ الأول Sancho I الملقب بالسمين) في

(١) حتي ، تاريخ العرب ، ٦٨١/٢ ؛ عاشور ، المدنية الإسلامية ، ص ٩٨ – ١٠٠ ؛ هونكه ، شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٦٨ – ٧٤ .

العودة الى عرشه ، فلم يجد إلا أن يستعين بالسلطات الأندلسية . وفعلاً استقبله عبد الرحمن الناصر في بلاطه القرطبي ودعا الأطباء لعلاجه فشفي من سمنته ، وفعلاً عاد الى مَنصِبه .

ولدينا أعلام عمالقة في كل مكان ، يُذكَرُ منهم على سبيل المثال : إبن حَيّان القُرطُبي الذي لُقّبَ بـ « شيخ المؤرخين الأندلسيين » وهو صاحب الطريقة العلمية النقدية في التاريخ ، ومن مؤلفاته كتاب « **المُقتَبِس في أخبار بلد الأندلس** » الذي يقع في عشرة أجزاء فُقِدَ أكثرها ؛ وإبن حَزْم الأندلسي ، العبقرية التي أنتجت في كل ميدان وكان مُبرّزاً في كلٍ منها ، وهو صاحب كتاب « **طَوق الحمامة** » في فن الحب والمحبين [١] ، ولقد أحصى ابنه مؤلفاته فكانت حوالي ٤٠٠ مجلد ؛ وأبو عُبَيد البكري ، الجغرافي الذي سبق عصره والذي قال بكروية الأرض وبرهن عليها في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي [٢] ؛ والعباس بن فرناس ، صاحب أول محاولة عملية في الطيران ؛ وأبو القاسم الزهراوي ، أيام الخليفة الناصر ، الطبيب الذي بقيت كتبه مُعتَمَدة في كليات الطب الأوروبية طيلة قرون عديدة . وهو الذي توصل الى استخراج الحصاة من المثانة أو تفتيتها، وإجراء

(١) انظر موضوع : ابن حزم من خلال كتابه « طوق الحمامة » ؛ وموضوع : إبن حزم الاندلسي الفقيه الأديب .
(٢) البكري ، جغرافية الأندلس وأوروبا ، ص ٤٣ .

عمليات في العين وغيرها .

وحتى في الموسيقى والغناء ، فكان هناك الغناء والموسيقى الشعبية والتي بقاياها الآن في البرتغال، ما يعرف بموسيقى الفارو، وفي اسبانيا . وكذلك الموسيقى « الكلاسيكية ، القديمة » التي أدخلها زرياب القرطبي [١] الذي أسس أول معهد موسيقي في الأندلس وكانت له طريقته الخاصة .

فلنا في كل علم وفن تراث ضخم وأشخاص لامعون .

فكانت قُرطُبَة تزخر بكل هذا ، وهي العاصمة التي كانت أضواؤها العامة تُرى على بعد أميال وشوارعها مبلطة يوم كان في باريس لا بد لمن يخرج من داره في يوم مطير أن يخوض الأوحال .

ويقول الشاعر في وصف قرطبة :

بأربعٍ فاقتْ الأقطارَ قُرطُبَةٌ
منهن قَنطَرةُ الوادي وجامِعُها
هاتانِ ثنتانِ والزهراءُ ثالثُها
والعلمُ أعظمُ شيءٍ وهو رابعُها

ويُذكر أنّ الخليفة الحكم المستنصِر أجرى الماء إلى

(١) باعتبار مَهْجَره وموطنه الجديد (قرطبة) .

مسجد قرطبة الجامع من عين بجبل قرطبة في أنابيب الرصاص التي وضعها في قنوات حجرية متقنة البناء تحفظها داخلها . وقد وصف أحد الشعراء هذا فقال [١] :

وقد خرقتَ بطونَ الأرض عن نطفٍ
مِن أعذبِ الماءِ نحوَ البيتِ تُجْريها
طهرُ الجسومِ إذا زالت طهارتُها
ريُّ القلوبِ إذا حرّتْ صواديها
قرنتَ فخراً بأجرٍ قلَّ ما اقترنا
في أمّةٍ أنتَ راعيها وحاميها

ثالثاً : التراث الباقي في إسبانيا

يتمثل هذا في ثلاثة مظاهر ، أجملها فيما يأتي :

١ – **العمارة :** وتتمثل بالمباني الإسلامية المتبقية حتى الآن والتي تشير الى المستوى المعماري وإلى الفنية في البناء ، وذلك مثل مسجد قُرطُبة الجامع وقصر إشبيلية وقصر الحمراء الذي يعدُّ أعجوبة الزمان في فنيته وهندسته وجمال زخرفته ، وإن هذه المباني لا تزال تحتفظ بألوانها الجميلة .

---

(١) سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ٣٩٣ - ٤ .

٢ – **حياة الناس** في إسبانيا متأثرة إلى حد كبير في كثير من النواحي . ففي البناء نجد أثر الفن الأندلسي وفي اللغة نجد كلمات كثيرة جداً من أصل عربي كالقطن Algodon والمحدة Almohada والقائد Alcaide والقاضي Alcalde وغيرها وفير . كما نجد أسماء الأماكن الجغرافية والمحلات والمدن لا يزال كثير منها يحمل أسماءً عربية . كما نلحظ التأثير في حياة الناس ، في عاداتهم وحتى في إسلوب حديثهم [١] .

٣ – المخطوطات :

الحديث عن هذا الموضوع طويل . ومجمله أن المخطوطات الأندلسية كانت كثيرة ولكنها أصيبت بنكبات متتالية أودت بقسم كبير منها ، من حرق وضياع وإهمال . ولا زال بعضها أو أقلها – وهو كثير – مفرّق في خزائن المكتبات في إسبانيا والبرتغال وغيرها . ويذكر على سبيل المثال مكتبة قصر الإسكوريال El Escorial الذي يقع على بعد خمسين كم شمال غرب مدريد . تضم هذه المكتبة حوالي الألفين من المخطوطات العربية القيمةالتي تشمل ميادين كثيرة [٢] .

---

(١) عنان ، الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال ،ص ٤٣٦ - ٥٤٤ ؛ لطفي عبد البديع ، الإسلام في إسبانيا ، ص ٨٥-١١٦.

(٢) عنان ، الآثار الأندلسية ، ص ٤٣٠ - ٤٣٥ .

وهنا أدعو المسئولين الى الاهتمام بهذا التراث بانشاء المعاهد وتخصيص الأموال اللازمة و مساعدة الباحثين المتخصصين للعمل على بعث هذا التراث وإحيائه قبل ان تمتلكه يد الضَياع.

فهو بحاجة الى اليد العالمة الحريصة والجهة المسئولة الغنية تنفق عليه وتساهم في بعثه إلى النور ، وذلك واجب الدول الإسلامية ، والعربية منها خاصة ، وغيرها ممن يشعر بصلة نحو هـذا التراث الزاهر . ولقد أخـذ الإسبان ، منذ بدأ هذا القرن ، الاهتمام به ورعايته .

والآن فان واجب الدول الاسلامية وجامعة الدول العربية ليس أقل من الدولة الاسبانية نحو هـذا التراث المُشْرِق المُشَرّف .

مما سبق – أيها السادة – تبينت لنا بعض الخطوط عن تاريخ الأندلس حيث استمر الإسلام هناك ثمانية قرون . وتعرضنا للحديث عن حضارته التي ساهمت الى حد كبير – مع بقاع الحضارة الإسلامية الأخرى – في بناء حضارة الإنسان الحالية ، وعما تَبَقّى من هذا التراث العزيز الذي يحتاج الى خدمة واعية ومخلصة .

ورأينا – كذلك – كيف أن الأندلس يمثل جزءاً من التاريخ الإسلامي بكل ما فيه من تمثيل للعقيدة الإسلامية أو إنحراف عنها ، ومن جهاد بُطولي وتضحية أو تخاذل وضيع وأثَرَة ؛

وبكل ما فيه من عبقرية وإبداع فكري وبنـاء حضارة شاملة أو هدم لما أبدعت العقول المؤمنـة ولما شادته يد المسلم ، يوم ألقي الإسلام ظِهْرِيا ؛ وبكل ما فيه من مُثل فاضلة عالية أو سقوط وانحراف عن هذه المثل .

وهكذا إطّرَدَتْ الحضارة والقوة والتقدم واقترنت مع درجة التمسك بالاسلام و الاعتداد بمبادئه السامية .

طارق بن زياد
بطل أبى التاريخ إلا مكافأته *

في تاريخ الأندلس متعة وعذوبة، وكثير من أحاديثه بحاجة الى جهود الباحثين لكشف جوانب عظيمة من التراث الاسلامي في شبه الجزيرة الايبيرية (اسبانيا والبرتغال اليوم) . ولكلمة الأندلس رنين ساحر معبر وموسيقى عذبة مطربة ، لما فيها من ذكريات ثمانية قرون ، اختلط النصر فيها بالهزيمة والعزة بالضعة. ونعني « **بالأندلس** » تلك المناطق من شبه الجزيرة الايبيرية التي كانت تحت الحكم الاسلامي والواقعة جنوب الخط الممتد من نهر دويره Duero غرباً الى برشلونة شرقاً ، اي تشمل كل البرتغال الحالية تقريباً واكثر اسبانيا .

وقصة فتح الأندلس او اسبانيا الاسلامية قصة شيقة، بدأت

---

* القي من اذاعة بغداد ونشر في جريدة (الشهاب) اللبنانية ، العدد الرابع، السنة الاولى، ٤ شوال ١٣٨٦/ ١٥ كانون الثاني ١٩٦٧ .

مشاهدها في مثل هذا الشهر الميمون (رمضان) ، بعد أن وافق الخليفة الاموي في دمشق ، الوليد بن عبد الملك ، على اقتراح موسى بن نُصَيْر والي الشمال الافريقي على فتح اسبانيا واختبارها بالسرايا اولاً .

عبر طريف بن مالك المضيق الى اسبانيا ،بأربع سفن ساعد بها يليان حاكم سبتة من قبل الدولة القوطية في الاندلس. وكانت قوة طريف العسكرية - كحملة استطلاعية - تتكون من خمسمائة محارب منهم مئة فارس . وتم عبورها الى الاندلس في رمضان سنة ٩١ هـ / ٧١٠ م واستقرت في المكان الذي حمل اسم قائد الحملة « **جزيرة طريف** » . وبعد جولات خفيفة ناجحة عاد طريف الى موسى بالاخبار السارة المشجعة . وعلى أساس النجاح الذي لقيه طريف جهز موسى حملة « **الفتح** » التي قادها أحد ضباطه الذين عُرفوا بالبطولة المتواضعة والحنكة الذكية والعسكرية المتفانية ، كان ذلك طارق بن زياد الذي امتلأ اخلاصاً وحماسة لنشر الاسلام عبر المضيق .

كانت مثل هذه الخطوة طبيعية بعد استقرار الاسلام في المغرب بشكل جعل أهله أنفسهم يتحمسون لحمل راية الدين الجديد . فكانت فكرة ُفتح اسبانيا إسلامية ً، تمثل موجة المد الاسلامي التي حملها الفاتحون حباً في نشر عقيدة الاسلام ومبادئه الانسانية التي ما عُرفت ولن تُعرف مثلها شرقاً وشمولا .

وفي السنة التالية ٩٢ هـ /٧١١ م سار طارق بجيش قوامه

سبعة آلاف جندي عبروا المضيق ليعسكروا في الجبل الذي خلد، والمضيق قبله، اسمَ هذا القائد وبكل لغات العالم «**جبل طارق** Gibraltar **ومضيق جبل طارق**». فكانت هذه هي المكافأة العظيمة التي حظي بها هذا العبقري، بجانب اقتران اسمه خلال التاريخ بالبطولة المؤمنة ونكران النَفْس. سار القائد يفتتح المناطق المجاورة بسهولة، وحينما سمع لذريق Rodrigo ملك اسبانيا القوطي بأخبار هذه الحملة بدأ يجمع جيوشه لمواجهتها فاجتمعت أعداد كبيرة أوصلتها بعض الروايات الى ما يزيد على مئة ألف محارب. وحينما سمع طارق بأخبار هذا التجمع كتب بالأمر الى موسى بن نُصَيْر الذي أرسل نجدة من خمسة آلاف جندي. فكملت عدة الجيش الاسلامي اثنى عشر ألفاً، أكثرهم من البربر الذين كانوا متحمسين لنشر العقيدة.

ويذكر بعض المؤرخين أمراً لا يمكن أن نمر عليه هنا دون تعليق. ذلك ان طارق قد أحرق السفن التي عبر فيها من سبتة الى الجبل، ليقطع كل أمل للمحاربين في العودة، الأمر الذي يدفعهم الى الاستماتة. ولا أميل الى تصديق هذه الرواية، إذ أنه من غير المعقول ان يقدم طارق على مثل هذا العمل وهو في أرض جديدة منقطعة، وأمام دولة كثيرة الجيوش، فما كان يغيب على مثل ذكائه انه سيحتاج إلى النجدة، ولقد تم ذلك فعلاً حين استجاب موسى لاستنجاده بخمسة آلاف جندي؛ كما أن السفن (كلها أو بعضها) التي استعملها طارق كانت ملكاً

ليليان حاكم سبتة كمساعدة للجيش الاسلامي.

سار طارق بقواته المتواضعة عدداً المتعالية بقوة العقيدة وسمو الهدف ليلتقي بقوات الجيش القوطي الكثيرة عدداً وعدة، المتهافتة معنوية. كان اللقاء عنيفاً حاسماً في تقرير المصير، لا مصير الجيشين فقط بل – وهذا أهم – مصير العقيدة والغاية التي حملها الجيش الفاتح إلى هناك، ومصير اسبانيا التي أرهقها الحكم القوطي ظلماً وفوضى. كان اللقاء في نهاية رمضان سنة ٩٢ هـ / أواسط حزيران ٧١١ م عند نهر البَرباط Barbate، غير بعيد من وادي لَكُه في شمال الجزيرة الخضراء حنوب اسبانيا. ويظهر أنه لا صحة للخطبة المنسوبة الى طارق والتي ألقاها أمام جنده قبل المعركة مخاطباً: «**أيها الناس: أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو امامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ...**». فلم يكن طارق – وهو من البربر – قد وصل إلى مستوى من الفصاحة ما يُمَكِّنُه لارتجال مثل هذه الخطبة. ولكن المعقول انه خاطبهم بما يثير حماستهم.

دام الالتحام بين الجيشين حوالي اسبوع قرر مصير شبه الجزيرة الايبيرية. فكان النصر حاسماً للمسلمين، تشتتت جيوش القوط وقتل الملك لذريق في تلك المعركة التي فقد فيها مُلْكَه ولم يُعثر له على أثر. واستمرت موجة الفتح منتصرة لم توقفها المقاومات المتفرقة. وكان الكثير من الشعب الاسباني قد رحب بها ووجد فيها المنقذ. واستمر هذا المد في التقدم الذي

أقر الحكم الإسلامي في شبه الجزيرة الايبيرية ،ذلك الحكم الذي جعل من قرطبة العاصمة فيما بعد « درةَ العالم » المزدهرة حضارة وتقدماً . وهكذا قامت هنـــاك للاسلام دولة أنبتت أعظم حضارة .

ويوم كانت الأندلس في القرن العاشر الميلادي تفخر بالمستوى العلمي الذي وصلته وبكثرة جامعاتها ومكتباتها العامة كانت أوروبا في عصور قاتمة من الظلام . وحين كانت قرطبة تزدان بالمصابيح شوارعُها المبلطة التي تمتد أميالاً ، كانت عواصم أوروبا محرومة من أي مصباح عمومي ولا يستطيع أحد الخروج من داره في يوم مطير من غير أن يخوض الأوحال . وبينما كانت بعض الجامعات الاوروبية تعتبر الاستحمام عادة وثنية كانت قرطبة تباهي بحماماتها الجميلة الانيقة .

موسى بن نُصَيْر
بطل أنكر ذاته *

كان الشمال الافريقي ، أيام الفتوح الأولى ، بحاجة إلى رجل حكيم قدير لا يعتمد على القوة وحدها في تثبيت حكم الاسلام هناك . إلى رجل يُتِمّ الأعمال العظيمة ويؤكد السيرة الكريمة لأسلافه قادة الشمال الافريقي وفاتحيه أمثـــال عُقْبة بن نافع الفِهْري وحسان بن النُّعْمان وغيرهما . فكان هذا الرجل موسى بن نُصَيْر اللَّخْمي الذي ولي حكم إفريقية والمغرب نحو سنة ٨٦ هـ / ٧٠٥ م واستمرت ولايته لعشر سنوات حتى ٩٥/٧١٤ ، كانت السنوات الأربع الأخيرة هي التي شاهدت فتح الاندلس، أيام الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦ – ٩٦ هـ / ٧٠٥–٧١٥م) .

ولد موسى سنة ١٩ هـ / ٦٤٠م في الشام،وكان أبوه (نُصَيْر)

---

* ألقي من اذاعة بغداد ، ونشر في جريدة (الشهاب) اللبنانية، العدد السابع (السنة الأولى)، ٢٠ ذي القعدة ١٣٨٦/١ آذار (مارس)١٩٦٧ .

من سَبي خالد بن الوليد في عين التمر (قرب الكوفة) سنة اثنتي عشرة للهجرة . نشأ موسى في بيت وثيق الصلة بالإدارة والجندية ، فكان كفؤاً لتولي حكم شمال افريقية ثم إفتتاح الأندلس[1] .

لقد استقر الفتح الاسلامي في المغرب ، نظراً للسياسة التي اتبعها موسى ومن سبقه . والوسيلة هي أن يكون السكان هناك حماة للدين الجديد يحيطونه بقلوبهم . وبفضل جيوش الدعاة الذين انبثوا هناك ينشرون الاسلام تحول سكان الشمال الافريقي (وهم من البربر) إلى جند لهذا الدين يتحمسون لحمله إلى الناس بأمانة . وفعلاً فطلائع الفتح الاسلامي لاسبانيا وقائدهُم طارق كانوا من هؤلاء الأبطال .

كان طارق بن زياد قد عبر إلى الاندلس في ٩٢ هـ / ٧١١ م وقد لاقت كل عملياته الحربية النجاح التام ، وسار حتى وصل مدينة طُليْطُلَة Toledo ، عاصمة اسبانيا القوطية ، وذلك بعد مرور سنة على عبوره . كان طارق ، كعهدنا به ، ذلك القائد المخلص للفكرة والهدف وللقائمين عليها ، فكان على صلة دائمة بموسى ينبؤه بأخبار الفتوح أولاً بأول . وبناء على طلب طارق

---

(١) عن موسى بن نصير راجع : إبن عِذاري ، البيان المُغْرِب ، ١٩/٢ - ٢٣ ؛ شيت خطاب ، قادة فتح المغرب العربي ، ٢٢١/١ وبعدها؛ مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٨٤ وبعدها ؛ عِنان ، دولة الاسلام ، ٥١/١ وبعدها ؛ سالم ، تاريخ المسلمين ، ص ٩١ وبعدها .

النجدة من موسى أو ملاحظته هو من مكاتبات طارق له ان لا بد من حملة أخرى تجتاز المضيق الى الاندلس . أمام هذا النجاح الهائل لحملة طارق (ووراء النجاح مسئوليات ومنجزات لا بد من المحافظة عليها) جهز موسى حملة من ثمانية عشر ألف مقاتل ، وبقيادة موسى نفسه . ولا صحة - عندي - لما يُروى من أن موسى قام بهذه الحملة بعد أن أكل الحسدُ قلبه للنجاح الذي حالف طارق منفرداً . فإن طارقاً كان يفتح الفتوح باسم موسى الذي كان متأكداً من اخلاص طارق ، وإلا فما الذي منع موسى من عزله وهو الذي ولاه؟ ولماذا لم يعبر إلى الاندلس إلا بعد سنة من عبور طارق ؟ لكن موسى ، في الحقيقة ، وجد أن طارقاً تقدم بسهولة ، ربما غير متوقعة ، وان الجيش الذي معه غير كاف للمسئوليات الجديدة والأعباء التي تفوق امكانياته . وخوفاً على الجيش أن تُقطَع عليه الطرق ويحيط به الأعداء قاد موسى ، بعد طارق بسنة ، حملته وسلك طريقاً في الفتح غير الذي سلكه .

وبعد مرور ما يقرب من سنة على عبور موسى التقى القائدان عند مدينة طَلَبيرَة Talavera ، شمال غربي طُلَيْطُلَة ، وكان مما قاله طارق لموسى : « **أيها الأمير : والله لا أرجِعُ عن قَصدي هذا ما لم أنته إلى البحر المحيط أخوض فيه بفرسي** » . وبعد أن قضيا الشتاء فيها ووضعا خطة الفتح ، سارا سوية حتى مدينة سَرَقُسْطَة Zaragoza ، حيث افترقا .

توجه طارق شمالاً ثم مال شرقاً فغرباً وفتح مدينة ليون Leon وأسْتُرْقَة Astorga . وسار موسى بجيشه نحـو الشرق ففتح بَرْشِلونَة Barcelono ، التي بقيت تحت الحكم الاسلامي حتى سنة ١٨٥ هـ / ٨٠١ م ، ثم عبر جبـال البُرْت Pyrenees إلى فرنسا وفتح مدينة نَرْبُونَة Narbonne ، حيث لا تزال آثار المسلمين ومسجدهم هناك . وعاد موسى الى الاندلس وفتحت تقريباً كل شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغـال اليوم) . فسار حتى بلغ مدينة خيخون Gijon على الساحـل الشمالي لاسبانيا عنـد خليج بسكاي Biscay فخاض بخيله شاطىء البحر عند صخرة بِلاي *Pena de Pelayo* . ودخل كثير من أهل البلاد في الاسلام ، وأمن الناسُ على حرياتهم وعقائدهم كما هو مألوف ومعروف في الشريعة الاسلامية في كافة العصور .

ولا ننسى ان عمر موسى في هذا الوقت كان يزيد على خمس وسبعين سنة . لكن قوة العقيدة وعزيمة الإيمان جعلا له نشاط الشباب وهمة الفتيان ، فكان يريد بعد أن يتم فتح اسبانيا أن يعبر جبال البُرْت الى فرنسا مستمراً في الفتح. ويُروى أن موسى عَبَّر عن هذه العزيمة بقوله : « **أما والله لو انقادوا إليّ لقدتهم الى رُومِيَة [روما] ثم يفتحها الله على يدي إن شاء الله** » .

ونتيجة للسياسة التي اتبعها البـلاط الأموي في دمشق تجاه الفتوحات الاسلامية في الغرب فقد طلب الخليفة الوليد بن عبد الملك الى موسى وطارق العودة الى الشرق . ولم يجد موسى

بُدّاً من تلبية الأمر ، والحسرة تملأ جوانحه . وبعـد أن عين موسى ابنه عبد العزيز والياً على الاندلس ، متخذاً من إشْبيلِيَة Seville عاصمة له ، عاد مع طارق إلى دمشق. ووصل البَطلان دمشق نحو بداية جمادى الأولى ٩٦ هـ / منتصف كانون الثاني (يناير) ٧١٥ م. وحينما توفي الوليد ، بعد ذلك بقليل ، وَرِثَه أخوه سليمان الذي ما عَرَفَ قَدر موسى ولا ثَمَّن خدماته العظيمة للاسلام . وعاش موسى بقية حياته ، وتوفي سنة ٩٧ هـ/ ٧١٥ م ، محروماً منكوباً من قِبَل سليمان .

وإذا كان المؤرخون قد اختلفوا في أصـل موسى أهو عربي أم فارسي ؟ أو لم تتفق آراؤهم حول مصيره ونهايته ، أو ان خلافة دمشق لم تقدر جهده وحسن بلائه ؛ فإن التاريخ والناس يعرفون موسى ، ذلك القائد المسلم العظيم الذي أنكر ذاته وبذل حياته خدمة للاسلام وعقيدته وحرصاً على نشرها . فقد كانت همتـه لا تعرف الخوف ولا يجد الكلل إليها سبيلا . ولو قُدِّر له أن يستمر وطارق (بطلا فتوحات الغرب الاسلامي) لأتمَّا – على الأقل – تثبيت الاسلام في كل شبه الجزيرة الإيبيرية وربما في بلاد الغال Gaul (فرنسا) أيضاً ، خاصة وان موجة المد الاسلامي يومها كانت في أوجها وفتوتها . ومن يدري لربما كان قُدِّر لعقيدة الاسلام أن تبقى حتى اليوم في اسبانيا أو وجدت طريقها إلى أنحاء أوروبية أخرى ، ولما كانت معركة بلاط الشهداء ولا هزيمتها.

لم يكن موسى عسكرياً ذكياً وقائداً جريئاً فقط بل كان

إدارياً حازماً من الطراز الأول . فعلى الرغم من انه كان منشغلاً في الفتوحات في الاندلس فقد أبرم العهود مع أهل البلاد الذين دخل كثير منهم الاسلام ، وطمأن مَن بقي منهم على دينـه وأعطاهم على ذلك المواثيق ؛ ونظم البلاد إدارياً، حتى أنه سك عملة إسلامية (ولأول مرة) في الاندلس .

رحم الله موسى التابعي الجليل الذي يرجع إليه فضل عبور الاسلام إلى أوروبا ، ويرحم أمثاله من الأبطال الذين خلدتهم أعمالهم العظيمة ومعها مضوا في ضمير التاريخ وغدوا بها أمـام الناس عمالقة كباراً .

عبد الرحمن الداخل

هارب من الموت يبني دولة *

تُشير سنة ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م إلى نهاية الدولة الأموية في الشام على أيدي العباسيين الذين تتبعوا الأمويين في كل مكان تشريداً وقتلاً . ولم ينجُ مَن نجا من هذه المطاردة إلاّ بأعجوبة . لكن عبد الرحمن الداخل لم ينجُ فقط بـل استطاع أن يبني دولة في أرض الغرب الاسلامي ، في الأندلس .

هرب عبد الرحمن (الداخل) بن مُعاوية ، حفيد الخليفـة الأموي العاشر هِشام بن عبد الملك ، من الشام الى تونس ثم الى المغرب ، وكان معه غلامه بدر . وهناك بدأ يُعد العدة لتهيئة الظروف له في الاندلس .

---

* أذيع من راديو بغداد ، ونُشر في جريدة (الشهاب) ، السنة الأولى، العدد الثامن ، ٥ ذي الحجة ١٣٨٦ / ٥ آذار (مارس) ١٩٦٧ .

كان والي الاندلس في هذا الوقت يوسف بن عبد الرحمن الفِهْري، وكان مُنشغلاً ببعض الأعمال الحربية في شمال الاندلس أو في الشمال الإسباني، حيث قامت جماعات من بلاد البَشْكُنْس Basques وجِلِّيقِيَّة Galicia بمهاجمة الاندلس. في هذا الوقت أعدّ عبد الرحمن الداخل الخطة للعبور الى الاندلس. وفي ١٣٨هـ/ ٧٥٥ م كان قد نزل في ثغر المُنَكَّب Almunecar على ساحل الاندلس الشرقي، وبدأ التقدم نحو قُرْطُبَة العاصمة. وبعد أن فشلت المفاوضات بينه وبين والي الاندلس، التقى الطرفان في معركة المُصَارَة (المُسَارَة) على ضفة نهر الوادي الكبير Guadalquivir عند قُرطبة، انتصر فيها الداخل وتمت له البيعة أميراً على الاندلس في صيف عام ٧٥٦ م.

سُمِّيَ عبد الرحمن بـ «الداخل» لأنه أوّل مَن دخل الاندلس من الأمويين حاكماً بعد زوال دولتهم في المشرق. كما سُمِّيَ بـ «الأول» لأنه أول ثلاثة حكام في الاندلس تَسَمَّوْا بهذا الاسم من الأمويين.

استمر حكم الداخل للاندلس ثلاثاً وثلاثين سنة إستطاعَ فيها أن يقوم بأعمال جليلة. وَحَّد الاندلس، التي كانت مضطربة، وقضى على الثوار في الداخل وأوقف أطماع الشمال الإسباني ودولة الفِرَنْجة، واستطاع إعادة وَحدة الاندلس التي ربما كاد فقدانها يؤدي إلى ضياعه كله. وقام باصلاحات عدة وَنظّم

شئون الدولة. فيعود الفضل إلى همته ونشاطه وخفة حركته في إقرار الاوضاع في الاندلس.

ومن هنا سماه أبو جعفر المنصور، وهو خصمه، بـ «**صَقر قريش**» (١). كما وصفه ابن حَيّان القُرطبي، شيخ المؤرخين الاندلسيين، بقوله: «كان عبد الرحمن راجِحَ الحلم، راسخ العلم، ثاقب الفَهْم، كثير الحزم، نافذ العزم، بريئاً من العجز، سريع النهضة في طلب الخارجين عليه، متصل الحركة، لا يخلد الى راحة، ولا يسكن إلى دَعَة ولا يَكِل الأمور الى غيره، ثم لا ينفرد في إبرامها برأيه، شجاعاً مقداماً، بعيد الغور شديد الحذر، قليل الطمأنينة، بليغاً، مفوهاً، شاعراً، محسناً، سمحاً، سخياً طلق اللسان» (٢).

ولعل أهم أمرين يُذكران، في أيام الداخل، هما: أنه في حَوالَيْ ١٦١ هـ/ ٧٧٨م سار شارلمان Charlémagne إمبراطور دولة الفِرَنجة لغزو الاندلس تلبية للدعوة التي وجهها إليه بعض الثائرين ضد سلطة قرطبة. فسار شارلمان بجيش صخم، مخترقاً جبال البُرْت Pyrenees حتى وصل مدينة سَرَقُسْطَة

(١) المَقّري، نفح الطيب، ٣٠٩/١؛ إبن عِذاري، البيان المُغْرِب، ٥٩/٢.

(٢) عِنان، دولة الإسلام، ١٩٢/١.

Zaragoza ، لكن المدينة استطاعت الوقوف ضد شارلمان وجيشه الجرار ، الذي اختاره من خيرة محاربيه ، مما اضطره الى أن يعود أدارجه خائباً . وبينما هو يعبر جبال البُرْت عائداً إلى بلده من ممر باب الشيزرو، المسمى رونسفال Roncesvalles، ذلك الممر الضيق المحاط بالمنحدرات الوعرة، داهمته قوةٌ مكوّنة من الجيش الاندلسي ومن البَشْكُنْس الذين خرب شارلمان عاصمتهم ، بَنْبُلونة Pamplona ، مرتين . فهاجمت هذه القوة مؤخرة جيش شارلمان وقضت عليها وأَخذت كل مَن وما كان فيها من الرهائن والغنائم . وكان في المؤخرة عـدد من خيرة ضباط شارلمان وقادته ، كان منهم رولان الذي أصبحت الأغنية التي نظمت فيه « أنشودة رولان La Chanson de Roland » مصدراً لقصص الفروسية في العصور الوسطى الأوربية. وما يزال حتى اليوم قبر هذا القائد موجوداً في مكان الحادث ويحمل تاريخ « ١٥ آب (أغسطس) ٧٧٨ »(١) .

كان من آثار هـذه الحادثة أن تغيرت السياسة الفِرنجية التوسعية تجـاه الاندلس وقامت صلاتُ صداقة وود ، حتى ليقال إن شارلمان عرض على عبد الرحمن الداخـل عقد معاهدة صداقة وأن يُزَوِّجَه ابنته ، فقبل الداخـل الصداقة ورفض الزواج . ويقول المَقَّري في **نفحه** : « وخاطبَ عبدُ الرحمن

---

(١) سالم ، تاريخ المسلمين ، ص ٢٠٢ - ٣ .

قارْلُهْ [شارلمان] مَلِكَ الإفرنج ، وكان من طغاة الإفرنج، بعد أن تمرّس به مـدة ، فأصابه صَلْبَ المكْسِر ، تامَّ الرجولية ، فمالَ معه الى المداراة ودعاه إلى المصاهرة والسِّلم ، فأجابه للسلم ولم تتم المصاهرة »(١) .

ويشار بهذه المناسبة الى إنه لا صحة لما يقال من وجود معاهدة ثنائية كانت بين الخلافة العباسية ودولة الفـرنجة من جهة ضد حكومة قرطبة والدولة البيزنطية من جهـة أخرى ، إذ ليس لهذه الفكرة أي دليل غير الظن .

أما الأمر الثاني المهم الذي يُذكر أيام الداخـل أنه : هو الذي أسس مسجد قرطبة الجامع في ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م ، وقد أتم بناءَه مَن جاء بعده من الأمراء والخلفاء حتى غدا هذا المسجد أعظم آيات الفن المعماري لا في الاندلس وحدها بل في العالم أجمع. وغدت أعمدته أشبه بغابة جميلة تَعُدُّ مـا يقرب من ألف وأربعمائة عمود لا يزال قائماً منها دون الألف .

وفي هذا المسجد وغيره من الآثار المعمارية حكايةُ جانب من قصة حضارة الاسلام في أرض الاندلس الزاهر .

---

(١) نفح الطيب ، ١/٣١٠ .

صورة من الدبلوماسيّة الأندلسيّة *

حديث الدبلوماسية في الأنــدلس – خاصة في الفترة الاموية – شيّق ممتع في مطالعته وتدبره ، غير سهل في تجميع مادته او الكتابة فيه ، وذلك لاسباب منها :

أ – فقدان كثير من المصادر الأصلية القيّمة التي لا نعرف غير اسمائها او بعض المنقولات عنها .

ب – جِدّته على البحث المنهجي ، وتشتت مادته التي تحتاج – مما تحتاج اليه – الى الالمام بلغات عدة .

ولقد ظهرت عنه مؤخراً عدة أبحاث ، كما تعرض له البعض بصورة جزئية . ولكنه لا يزال بحاجة الى أبحاث تُكرّس له ،

* نشر في مجلة « الوعي الاسلامي » التي تصدرهـا وزارة الأوقاف والشئون الاسلامية بالكويت، السنة الثالثة ، العدد الخامس والعشرون ، محرم ١٣٨٧ / أبريل (نيسان) ١٩٦٧ .

لتسلط عليه الأضواء الكافية لتجلية الجوانب المجهولة منه .

ولا بد لدارس الدبلوماسية – عموماً والأندلسية على وجه الخصوص – أن يتناول هذا الموضوع من الناحية التاريخية والفنية بالاضافة إلى العَلاقات العلمية (الفكرية) ، والتبادل الثقافي أو الدبلوماسية الثقافية التي تتأثر – إلى حد – بالوضع السياسي .

فالناحية التاريخية :

تقوم على ما وَصَلَنا من النصوص – وكثير منها عام، مبهم احياناً – لمحاولة فهمها على ضوء الاحداث التاريخية ، وما دَوَّنَه مؤرخو الامم المعاصرون لها من جانبهم ، والاطلاع على ما كتبه الباحثون منهم فيما بعد ؛ وتمحيص كل ذلك ، ثم ايجاد العَلاقة بين هـذه النصوص من ناحية ، وبين الاحداث التاريخية التي ترتبط بها من ناحية أخرى ، للوصول الى استنتاج معقول جهد الامكان . ولا بد من الأخذ بعين الاعتبار الدوافع التي دعت إلى هذه المناشط الدبلوماسية لكلا الطرفين، والمبادىء التي قامت عليها وأثرت فيها والاهداف التي عملت لهـا ، والخط الخلقي الذي واكبها وتَحَكَّم فيهـا ومقدار الإلتزام بقيَمها وعهودها ثم النتائج التي أثمرتها .

أما الناحية الفنية فتتناول :

١ – الطريقة التي كانت تتم فيها هذه الدبلوماسية والتقاليد

التي تبنتها وحافظت عليها ومراسيم استقبال السفراء الوافدين الى بلاط قرطبة، من مختلف الاقطار، وطريقة استقبال الأمير أو الخليفة لهذه السفارات، ثم الأبهاء التي كانت هذه الاستقبالات تتم فيها.

٢ – طريقه اختيار السلطات الأندلسية لسفرائها ودراسة شخصية السفير ومرافقيه.

٣ – لغة الدبلوماسية وطريقة التفاهم من والى الحاكم، بالنسبة لسفراء الأندلس الى الاقطار الاخرى – اسلامية أو غير اسلامية – أو العكس.

وهذه النقاط الثلاث ترسم لنا صورة عن التقاليد الدبلوماسية لذلك العصر.

٤ – محاولة المقارنة بين هذه التقاليد وبين بعض مظاهر الدبلوماسية الحديثة، من ناحية وجود « الفنية » في قواعد الدبلوماسية الاندلسية « البرتوكول Protocol » والحصانة الدبلوماسية والتمثيل الدائم [١]، وكم أثرت في الدبلوماسية الحديثة.

---

(١) عثرت على « مثل » للتمثيل الدبلوماسي الدائم بين الأندلس والشمال الإسباني. فقد ذكر ابن حيّان القرطبي أن الحكم المستنصر عيَّن كلا من أحمد بن عمروس العريف وسعيد سفيرين دائمين لدى مملكة ليون Leon =

٥ – تأثر الدبلوماسية وتأثيرها في الوضع الحضاري وفي مستوى التقدم العلمي الذي تعيشه الدولة، مع التركيز على ما يتعلق بالاندلس.

وقد يقود هذا الموضوع إلى دراسة البعثات « السفارات » العلمية التي وفدت الى الاندلس، لتنهل من منابع المعرفة فيه والتزود من حضارته.

إن الدبلوماسية تزدهر بازدهار الحضارة وتمكّن الاستقرار والتقدم مما يجعل ذلك البلد – خاصة في تلك القرون – مقصداً للسفارات القادمة اليه من الاقطار الاخرى، طالبة صداقته والاستفادة مما عنده، يتلو ذلك توجه السفراء منه الى تلك الاقطار أو بعضها.

ولقد ازدهرت الدبلوماسية في الاندلس، وماج بلاط قرطبة – في فترات كثيرة – بالسفراء من الشرق والغرب، خاصة في عصر قرطبة الزاهر في القرن الرابع الهجري / العاشر

= (جليقية Calicia). انظر: إبن حيان، المقتبس في أخبار بلد الاندلس، مخطوط الأكاديمية التاريخية بمدريد (مجموعة كوديرا F. Codera رقم ٢)، الأوراق: ٤٢ أ – ب، ٨٨ أ. وقد نُشر هذا الجزء من « المقتبس » في بيروت، ١٩٦٥. وقصة التمثيل الدائم، المذكورة آنفاً، تقع في الصفحات ٧٦، ١٤٧.

الميلادي (١) ، خلال حكم عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر .

ويوجز لنا ابن حَيّان القُرْطُبي ، مؤرخ الاندلس ، ذلك – حين الحديث عن الناصر – بقوله: «إنّ مُلْكَ الناصر بالاندلس كان في غاية الضخامة ورفعة الشأن ، وهادته الروم وازدلفت اليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر . ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الامم إلا وفدت عليه خاضعة راغبة وانصرفت عنه راضية » (٢) .

ومن الامثلة التي تصور لنا بعض جوانب الدبلوماسية الاندلسية حضورُ السفارة الالمانية التي أرسلها الامبراطور أوتو الاول (الكبير Otto I, The Great) – الذي تسميه الرواية الاسلامية (٣) هوتُو أو هوتُه – الى بلاط الخليفة الناصر .

ولا تمدنا المصادر الاسلامية عن هذه السفارة إلا بمعلومات

---

(١) وصفت الشاعرة الألمانية Hroswitha (القرن العاشر الميلادي) قُرْطُبة بأنها : « جوهرة العالم » .

Lévi - Provençal, *La Civilisation Arabe en Espagne*, p. 114.

(٢) المقّري ، نفح الطيب، ١/٣٤٣ .

(٢) البكري ، جغرافية الأندلس وأوروبا ، ص ١٧٠ .

موجزة ، وهي تسمي الالمان بـ « الصقالبة » (١) . لكن المصادر الاوروبية تقدم – بهذا الصدد – تفصيلات اكثر ، وإن كانت تنظر الى الموضوع من وجهة خاصة قد تقودها أحياناً الى بعض الاحكام غير الدقيقة القائمة على توهمات ليس من الصعب معرفة بعدها عن الواقع . وأغنى مصدر عن هذه السفارة هو تاريخ حياة السفير الالماني الذي كتبه أحد تلامذة السفير باللاتينية (٢) .

والسبب المباشر – وربما الوحيد – لهذه السفارة هو محاولة رجاء قُرْطُبة في استعمال سلطتها لايقاف خطر أندلسي نشأ فيما وراء جبال البُرْتات Pyrenees .

ففي حوالي ٨٩٠ م رست سفينة صغيرة الى الشاطىء الجنوبي الشرقي من فرنسا قرب مرسيليا تحمل حفنة من المغامرين

---

(١) إبن خلدون ، العِبَر ، ٤ / ٢ / ٣١٠ ؛ إبن عِذاري ، البيان المُغْرِب ، ٢/٢١٨ .

(٢) رينو ، تاريخ غزوات العرب ، ص ٢٣٠ . يحتوي هذا الكتاب على تعليقات كثيرة قيمة للمترجم (شكيب أرسلان) ، وهو – في أكثره – مترجم عن الأصل الفرنسي لكتاب رينو الذي تُرجم كذلك إلى الانجليزية:

Reinaud, *Muslim Colonies in France, Northern Italy and Switzerland*, Eng. tr. H. Kh. Sherwani, Lahore, 1964.

كما ترجم أرسلان ، مع هذا الكتاب، كتاباً آخر من الألمانية لمؤلفه السويسري: F. Keller .

الإندلسيين، الذين ازداد عددهم فيما بعد واستطاعوا أن يؤسسوا هنـاك دويلة في منطقة البروفانس Provence شمال طولون Toulon، متخذين من قلعة فراكسنيتوم Fraxinetum الحصينة عاصمة لهم. والراجح ان قرية كارد فرينيه Garde - Frainete الحالية تمثل مكان هذه القلعة(١) والتي يسميها الجغرافيون المسلمون بـ « **جبل القِلال** »(٢).

واستمرت هذه الدويلة قائمة حوالي تسعين سنة، لا نعرف عنها إلا اليسير؛ بل من العجب اننا لا نعرف اسم أحد من قادتها او افرادها ولا تفصيلات عن نظام الحياة فيها، وهل استعمل سكانها لغات أخرى الى جانب العربية؟ إن كانت بقيت العربية لغة لهم! ولعل حياتهم الحربية لم تسمح للآخرين بالتعرف عليها، وبالتالي لم يكن من بينهم مؤرخ يسجل لنا مجريات الامور فيها.

ولقد اتسعت رقعة الارض التي سيطروا عليها حتى امتدت الى أكي Acqui، شمال جنوة في ايطاليـا، وسنت غالن St. Gallen وخور Chur في شمال شرق سويسرا(٣). واعتقدَ الامبراطور الالماني، أوتو الاول، تبعيتَهم للخلافة

(١) رينو، ص ٢٠٩ - ٢١١.

(٢) ابن حوقل، صورة الأرض، ١/ ٢٠٤؛ رينو، ص ٢١١-٢١٤.

(٣) Liudprand, *The Works of Liudprand of Cremona*' Eng, tr. F. A.. Wright, London, 1930, pp. 90, 144.

القـُرطبية، فأراد التوسط لدى الخليفة الناصر بايقاف هجماتهم على تلك المناطق فبعث بسفرائه الى قرطبة لهذا الغرض.

تركت رسل الامبراطور اوتو المانيـا بَرّاً عبر فرنسا حتى مرسيليا، حيث ركبوا البحر الى برشلونة ومنهـا كتبوا إلى والي طُرْطـُوشة – أقرب مدينـة اندلسية اليهم – يخبرونه بقدومهم، فأجابهم الوالي مُرَحِّباً بهم وأكرم وفادتهم لدى وصولهم. وأخبر الوالي الخليفةَ بذلك فأصدر الخليفة عبد الرحمن الناصر (المتوفى ٣٥٠ هـ/ ٩٦١ م) أوامره بتسهيل سفرهم، وأن يُستقبلوا أحسن استقبال في كافة المدن التي يمرون بها في طريقهم إلى قرطبة. ووصلت السفارة الالمانية العاصمة الاندلسية – للتفاوض في أمر الدويلة القائمة في **جبل القِلال** – حوالي ٣٤٢ هـ/ ٩٥٣ م برئاسة الحَبْر المتبحر « يوحنا الغورزيني John de Gorze » يحمل رسالة الامبراطور وهداياه الى الخليفة؛ واستقبلهم الخليفة الناصر كريم الاستقبـال وأنزلهم قصراً مجهزاً بكل أسباب الراحـة، أُعِدَّ خصيصاً لهم وهو « **مُنيَة الناعُورة** » في جنوب غربي قرطبة(١).

مشكلة دبلوماسية

وبعد أن أخذ الوفد الضيفُ راحته وزال ما به من عَنـاء

(١) عن هذه المنية راجع: إبن حَيّان، المُقْتَبِس، ٣/ ٣٨.

تلك الرحلة الطويلة الشاقـة بدأت الترتيبات اللازمة والمراسيم التقليدية لتعيين يوم مقابلة الوفد الالماني للخليفة الناصر ، وعَرف المكلفون بإعداد التمهيـدات الخاصة بالمقابلة فَحوى رسالة الامبراطور وهدف سفارته ، التي ترمي كما قلنا : الى استعمال سلطة الخلافة الاندلسية لايقاف هجمات المغامرين في فراكسنيتوم .

ونظراً لشدة لهجة رسالة الامبراطور الالماني ، وانتقادها لبعض الآراء السياسية للخلافة القرطبية [١] ، قرر الناصر بأنّ مقابلة السفارة الالمانية له يمكن ان تتم فقط بدون تلك الرسالة ، لكن رئيس السفارة – يوحنا – رفض بإصرار مقابلة الخليفة بدون الرسالة . ولم يستطع المكلفون بهذا الأمر إقناع السفير الالماني بالتخلي عن رأيه . فما هي يا ترى الخطوة التالية ؟

سفارة الى المانيا

استقر رأي الخليفة – بعد المشاورات ومع السفير الالماني أيضاً – على إرسال سفارة اندلسية الى الامبراطور الالماني لشرح الموقف وإقناعه بتبديل الرسالة بأخرى مناسبة . وكان لا بد من اختيار سفير يقوم بهذه المهمة خير قيام ويتحمل تبعات الرحلة الطويلة . وفي ربيع سنة ٣٤٤ هـ/ ٩٥٥ م رحل الوفد

(١) قارن : رينو ، ص ٢٣١ ؛ عِنان ، دولة الإسلام في الأندلس ، ٢/ ٤١٥ .

الأندلسي من قُرطبة لهذا الغرض قاصداً المانيا، برئاسة الأُسقُف القُرطبي ريثموندو Recemundo ، الذي تسميه الرواية الاندلسية « ربيع بن زيد » [١] . وكان ربيع هـذا أحد المستعربين Mozarabes الذين يجيدون العربية واللاتينية على السواء، وكان ممن عملوا في بلاط الناصر وابنه الحكم المستنصر [٢] ، وعَيّنه الناصر أُسقفاً لمدينة إلبيرة Elvira مكافأة على قيامه بهذه السفارة .

سافر الوفد الاندلسي ، عبر الشمال الإسباني وبلاد الغـال (فرنسا) ، إلى فرانكفورت حيث كان يقيم الامبراطور الالماني . فاستقبل اوتو السفارة الاندلسية بجميل الاستقبال وكريم الوفادة ، ووافق على كتابة رسالة جديدة رقيقة اللهجة تحل محل الاولى .

مقابلة الخليفة

نجحت مهمة السفارة الاندلسية ، وعاد ريثموندو وصحبه إلى قُرطبه ، بعد غيبة استمرت حوالي خمسة عشر شهراً . ثم جرت التمهيدات ليوم إستقبال الخليفه للسفارة الالمانية . وتعين يوم ٢١ حزيران (يونيو) ٩٥٦ م موعـداً لذلك ، واتـُخذت

(١) إبن خلدون ، نفس المصدر والصفحة .
(٢) انظر : عِنان ، نفس المصدر ، ٢/ ٤١٦ .

الأستعدادات اللازمه وأقيمت الزينات واصطف الجند بمراتبهم المختلفة وأسلحتهم المتنوعة على جوانب الطريق . وبينما يسير الوفد الالماني كانت فرق من الجند تعرض الافانين من ألعاب الفروسية الرشيقة ، احتفالاً بهذه المناسبة .

وخرج الناس ليشهدوا الإحتفال بهذا اليوم ، وسار الموكب من مدينة قرطبه الى القصر الخليفي بمدينة الزهراء ، التي كانت – ولا تزال بقايا آثارها – تقوم عند أقدام « **جبل العروس** »(١)، على بعد خمسة أميال تقريباً شمال غربي قرطبة . ولدى وصول الوفد الالماني مدينة الزهراء كان كبار رجال الدولة في استقباله.

وتقدم الموكب الى القصر الذي كانت مداخله مفروشة بالسجاد الجميل ، فوصلوا الى حيث كان يجلس الخليفة الناصر – متربعاً على سريره ، ومتكئاً على الوساد – في الجناح الشرقي من القصر ، في بهو السفراء المسمى بـ « **المجلس المؤنس** » ، الذي تم العثور عليه خلال التنقيبات في ١٩٤٤ (٢) . فرحب الخليفة بالوفد اجمل ترحيب ، وبدأ الحديث بعبارات المجاملة والثناء على الامبراطور الالماني .

ولم يتناول الحديث في هذه المقابلة الهدف الرئيسي بالتفصيل،

(١) المقري ، النفح ، ٢ / ٦٥ .

(٢) عنان ، ٢ / ٤٠٣ .

فكان أشبه بلقاء التعارف . ثم تلته لقاءات أخرى بين الخليفة والوفد الالماني ، اقتنع الوفد خلالها بوجهة نظر قرطبة ، وأنها لا سلطة لها على اولئك المغامرين في فراكسنيتوم (**جبل القلال**) ولا هم تابعون لها ؛ وبذلك أعطيت للسلطات الالمانية مطلق الحرية في اختيار طريقها لعلاج هذه المشكلة .

وفي اواسط صيف ٩٥٦ م ترك الوفد الالماني قرطبة ، بعد توديع الخليفة له شخصياً ، عائداً الى بلده بعد ثلاث سنوات أقامها في قرطبة ، قيل ان يوحنا – رئيس الوفد – تعلم خلالها العربية وحمل معه الى المانيا بعض المخطوطات العربية (١) .

إن هذه السفارة وأمثالها تلقي الضوء على التقاليد الدبلوماسية التي كانت في ذلك العصر ، وليس في الاندلس وحده ولكن في تلك الدول التي تبادلت وإياه النشاط الدبلوماسي . وهذا الأمر يحتاج الى جهود كبيرة من الدارسين لهذا الحقل الذي لا يزال بكراً .

والأمل الآن ان تظهر عن هذا الموضوع – قريباً – الى عالم التأليف من البحوث ما تتناسب واهميته وجاله البالغين.

(١) حتي ، تاريخ العرب ، ٢ / ٧٠١ .

يا لمحنة القالي! *

لعل الكثير منا يعرف شيئاً عن الأديب اللغوي إسماعيل بن القاسم المعروف بـ « أبو علي القالي » البغدادي ، صاحب كتاب « **الأمالي** » الذي ألّفه للخليفة الاندلسي الحكم المستنصر (ابن عبد الرحمن الناصر) المتوفى سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م. وكان القالي (٢٨٨-٣٥٦ هـ / ٩٠١-٩٦٧ م) قد رحل من بغداد الى الأندلس في سنة ٩٤١/٣٣٠ أيام الخليفة عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله). وقد استقبله الناصر إستقبالاً كريماً وأوسع له في كنفه .

لكن – ربما – لم يأتنا خبر ذلك الموقف المحرج والمحنة القاسية التي تُعتبر أصعب ما مرّ في حياة أديبنا الكبير (القالي). ففي سنة ٩٤٧/٣٣٦ وفدت على البلاط القرطبي سفارة من

(*) نشر في (الشهاب) اللبنانية ، العدد الثاني ، السنة الثانية ، ١٧ – ١١ – ١٣٨٧ هـ / ١٥ – ٢ – ١٩٦٨ م .

قسطنطين السابع إمبراطور بيزنطة (القسطنطينية ، إسطنبول حالياً) ، تحمل الهدايا الثمينة الى الخليفة الاندلسي عبد الرحمن الناصر (١) .

أقام الناصر بهذه المناسبة حفل إستقبال رائع ، وكان يوماً مشهوداً ، لتكريم الوفد البيزنطي في قصر قرطبة . وكان ضمن برنامج الاحتفال أن تُلقى خطبة مناسبة . فأسندت هذه المهمة الى الفقيه محمد بن عبد البرّ ، ولما قام ليُلقي خطبته أذهله الموقف فلم يهتدِ الى جملة ، وسقط على الأرض مغشياً عليه . وغدا الحرج شديداً فاتجهت الأنظار الى أبي علي القالي ، الذي كان يُعتبر من أمراء الكلام وفرسان اللغة . وهدأت نفوس الناس – الى حين – وهم يرون أبا علي يقف ليبدأ خطبته .

وما أن وقف القالي مبتدئاً خطابه بحمد الله والثناء عليه بما هو أهله وصلى على نبيه ﷺ حتى انقطع به الكلام ووقف واجماً حائراً مفكراً في كلام مناسب يذكره ، ولكن دونما جدوى . وهنا تأزّم الموقف أيما تأزّم !! إذا كان أمير الكلام وأستاذ الأدب واللغة قد وجم وأذهله الموقف فأُرتِجَ عليه ، فمن يا تُرى سيقوم بإنقاذ الموقف وحل الأزمة ؟؟ ولم يحل العقدة ويُنقذ من المحنة غير قاضي قرطبة منذر بن سعيد البلّوطي

---

(١) النُباهي ، تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٦٦ ؛ وراجع المقال التالي .

الذي قام من ذاته ، ودون تحضير سابق ، وابتدأ حديثه – مُوصِلاً خطبة القالي – بكلام بليغ أثار إعجاب الحاضرين ودَهشتهم .

لله دَرُّ البلوطي ويا لَمِحْنَةَ القالي . ولكن لا بأس عليك يا أبا علي ، فَلكلٍّ لِسانٍ حَبْسَة ولِكلِّ خطيبٍ سَكْتَة .

حفل دبلوماسي

في قصر قُرطبة الزاهر *

للاندلس رنين طَرب في آذان المسلمين وقلوبهم ، يصاحبه أسى الذكرى على فقدانها . وقد يتعدى هذا الرنين الى كل من تربطه بهذا التاريخ النضر رابطة من غير المسلمين . أقام المسلمون في الأندلس (إسبانيا الاسلامية = إسبانيا والبرتغال اليوم) ثمانية قرون (٩٢–٨٩٧ هـ / ٧١١–١٤٩٢ م) . وصلت حضارتهم فيها الى أعلى مستوى وصلته حضارة الاسلام في أي مكان بل وربما أربت عليه . كان عصر خلافة قرطبة في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي هو قمة هذه الحضارة التي أسهمت في تطور الانسان وعلى قواعد منها قامت حضارة العالم اليوم ، وان كانت هذه الحضارة الحالية قد غفلت عن روعة الروح التي

* نُشر في العدد : ٧٦ من « الملحق الأسبوعي » لجريدة «الجمهورية» البغدادية ، الخميس ١٩٦٧/٢/٢٣ .

انتجت تلك الحضارة : **الروح الاسلامي الانساني النزعة .**

كان الخليفة عبد الرحمن الثالث الملقب بـ «الناصر لدين الله» ، المتوفى سنة ٣٥٠ هـ ، يعتبر يومها من أقوى حكام العالم ، إن لم يكن أقواهم طرّاً. فكانت كل الدول ، حتى البعيدة منها ، ترسل سفاراتها طالبة ود قرطبة ومصادقتها . وينقل لنا المقّري ، بصدد هذا الموضوع ، عن ابن حيّان القرطبي قوله : « إن مُلكَ الناصر بالاندلس كان في غاية الضخامة ورفعة الشأن ، وهادته الروم ، وازدلفت اليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر ، ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والافرنجة والمجوس وسائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعة راغبة ، وانصرفت عنه راضية »[1].

وهناك أيضاً السفارات الثقافية التي كانت ترد قرطبة ، عروس الاندلس ، لتتلقى العلم في جامعاتها وتنهل من أفانين المعرفة فيها ، استوى في ذلك داني البلاد وقاصيها .

لدينا واحدة من هذه السفارات التي وفدت الى قرطبة أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر . روى هذه السفارة الطريفة عدد من المؤرخين الاندلسيين بأسلوب شيق منهم : ابن عذاري في **البيان المُغْرِب** وابن خلدون في **العِبَر** والمقّري في **نفح الطيب**

(١) المقّري ، نفح الطيب ، ١/٣٤٣ .

وأبو الحسن النُباهي في **تاريخ قضاة الأندلس**[1] وغيرهم[2]. ولئن كان هؤلاء المؤرخون قد اختلفوا في التاريخ المحدد الذي حضرت فيه هذه السفارة إلى قرطبة فإنهم اتفقوا على أكثر تفاصيلها .

ففي سنة ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م حضرت الى قرطبة رسل امبراطور الروم في القسطنطينية (اسطنبول) قسطنطين السابع بن ليون المعروف بالارجواني « بورفيروجينتوس » ، وافدين على الخليفة الناصر جالبين أنفس الهدايا كان منها كتابان : كتاب « ديسقوريدس Dioscorides » عن الحشائش ومركبات الأدوية ، مكتوب باللغة الاغريقية (اليونانية) . وديسقوريدس هو اسم المؤلف الذي عُرف الكتابُ باسمه . وكان الكتاب الثاني هو كتاب « أورُسيُوس (هُروسيُس أو هُروشيُش) Poulus Orosius » . وهو كتاب باللاتينية عن تاريخ العالم من أيام آدم (عليه السلام) حتى سنة ٤١٦ م . ألفه هُروسيُس في سنة ونصف معتمداً على كتابات مَن سبقه .

أخرج الناصر القادة وكبار رجال الدولة لتلقيهم قبل وصولهم قرطبة ، ثم أُنزلوا أحد قصور الضيافة ، وهو « مُنية الحَكَم المستنصر » ، والمُنية هو القصر . ووكل لرعايتهم والسهر

(١) ص ٦٦ ؛ وكذلك المقال السابق .

(٢) ابن عذاري ، البيان المُغرب ، ٢/٢١٥ ؛ عِنان دولة الاسلام في الأندلس ، ٢/٤١٠ - ٤١٤ .

على راحتهم أُناس متخصصون . وحتى هذه اللحظة كان الناصر في قصر « الزهراء » المدينة الخليفية ، التي تقع عند أقدام **جبل العروس** على بعد خمسة أميال شمال غربي قرطبة . ويسمى هذا الجبل الآن بالاسبانية: سيرا دي كوردوبا Sierra de Cordoba ، أي جبال قرطبة .

رحل الناصر من قصر الزهراء الى قصر قرطبة لاستقبال وفد بيزنطة ، وقعد لاستقبالهم في « يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة ٣٣٦ هـ / بداية أيلول (سبتمبر) ٩٤٧ م ، وذلك في قاعة الاحتفالات الدبلوماسية في قصر قرطبة ، القاعة المسماة بـ « **بهو المجلس الزاهر** ». وجلس الناصر محفوفاً عن يمينه ويساره بأبنائه وحجابه ووزرائه وكبار رجال الدولة ، وكان يوم الاستقبال يوماً مشهوداً . جاء الوفد البيزنطي من مكان ضيافتهم الى قصر قرطبة ، مارين وسط الناس ومراتب الجند الشاكين في أسلحتهم المختلفة ، حتى وصلوا قاعة الاستقبال ، وقد بَهر الوفد بأبهة السلطان وبهجة الحكم . فقدّموا رسالة قيصرهم مكتوبة باللغة اليونانية بالذهب في ورق ذي لون سماوي في داخله رقعة مصبوغة ومكتوبة بالفضة بنفس اللغة ، فيها وصف هدايا امبراطور القسطنطينية . وكان على الرسالة طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل ومرسوم على أحد وجهيه صورة السيد المسيح (عليه السلام) وعلى الوجه الآخر صورة الامبراطور قسطنطين وصورة ولده رومانين – رومانوس

الثاني – وكانت الرسالة موضوعة داخل غطاء فضة منقوش ، عليه غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين الملك معمولة من الزجاج الملون البديع . وقد كُتب على الرسالة سطران . الأول : قسطنطين ورومانين المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم . والسطر الثاني : الى العظيم الاستحقاق للفخر الشريف النسب ، عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالاندلس ، أطال الله بقاءه .

تسلم الناصر هذه الرسالة وما فيها من الهدايا ومنها الكتابان اللذان ذُكرا آنفاً .

كان جاري العادة في مثل هذه المناسبات أن يقوم الخطباء والشعراء بإلقاء كلمات وقصائد مناسبة يرحبون فيها بالوفد ويعظمون من شأن الاسلام والخلافة ويشكرون الله على نعمه وإعزاز دينه . وكان قد تولى ترتيب هذه المهمة الحكم الثاني المستنصر بالله – إبن الخليفة الناصر وولي عهده . وتقرر أن يقوم الفقيه محمد بن عبد البَر بإلقاء الخطبة ، وكان معروفاً بأنه صاحب قدرة عظيمة في الكلام .

وهنا يحدث ما ليس في الحسبان . وقف الفقيه ليلقي كلمته ولكن بهرته أبهة الموقف وجلال المقام ، فأرتِجَ عليه القول فما اهتدى إلى عبارة ولا انبس ببنت شفة ، بل غُشي عليه وسقط

من طوله على الأرض ، وأصبح الموقف حرجاً ، وما درى الناس ما العمل ، وتلفتوا بحثاً عمن يسد هذا النقص .

كان بين الحاضرين الأديب اللغوي وافـد العراق ، صاحب كتاب **الأمالي** ، اسماعيل بن القاسم البغدادي المعروف بـ « أبو علي القالي » ، الذي رحل عن بغداد الى الاندلس مستقراً فيهـا سنة ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م . توجهت الأنظار الى هذا الأديب الكبير لينقذ الموقف . وُطلب الى القالي ، أمير الكلام ، أن يقوم ليرقع هذا الوهي . وفعلاً قام القالي : فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلى على نبيه محمد ﷺ ..! ثم توقف !؟ زاد الموقف حراجة ، ما الذي حدث !؟ انقطع القول بأبي علي القالي ووقف واجمـاً مفكراً ـعبثاًـ في كلام يتم به خطبته ، فلم يهتد الى مقالة . فما العمل يا ترى ؟

هنا يظهر رجل الموقف ، متطوعاً من ذاته ودون تحضير . ذلك هو قاضي الجماعـة بقرطبة « منذر بن سعيد البَلوطي » . فابتدأ حيث انتهى القالي بكلام عجيب كأنما كان يحفظه قبل ذلك فكان مما قاله بعد الديباجـة : « ... ان من الحق أن يقال للمحق صدقت وللمبطل كذبت ... وإني أذكركم بأيام الله عندكم وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التي لمت شعثكم ... ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالهـا ...؟ حتى باشره بالمهجة والأولاد واعتزل النسوان وهجر الأوطان ورفض الدعة وهي محبوبة ، وترك الركون الى الراحة وهي مطلوبة ، بطوية

صحيحة وعزيمة صريحة ... فأصبحتم بنعمة الله اخواناً .. حتى تواترت لديكم الفتوحات ، وفتح الله عليكم بخلافتـه أبواب البركات ، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم ... فاعتصموا بما أمركم الله ... وأستغفرُ الله الغفور الرحيم فهو خير الغافرين » . وقد أنشد البلوطي أثناء خطبته هذه أبياتاً له ، منها :

مقالي كحد السيف وسط المحافل
فَرَقْتُ به مـا بين حق وباطلِ
بقلب ذكي ترتمـي جمراتُـه
كبارق رعد عند رعش الأنامـل
لخير إمـام كان أو هو كائن
لمقتبـل أو في العصور الأوائل
ترى الناس أفواجاً يؤمون بابه
وكلهم مـا بـين راج وآمـل
وفود مـلوك الروم وسط فنائه
مخافـةَ يأس أو رجـاءً لنائل
فعش سالماً أقصى حيـاة مؤمَّلاً
فأنت رجاء الكل حاف وناعل

وبهذا الموقف حـاز القاضي البلوطي إعجاب الحاضرين ودهشتهم ، وكان الخليفة الناصر أشدَّهم إعجاباً بـه . ومنذئذٍ

علت منزلته لدى الناصر ولدى إبنه الحكم المستنصر بعد ذلك.

ثم عاد سفراء بيزنطة مكرمين الى بلادهم بعد ان حققت سفارتهم ما يرجى منها من عقد معاهدة صداقة وسلام مع قرطبة .

ولم تكن هذه السفارة إلا أحد الوفود الدبلوماسية الكثيرة التي قصدت قرطبة من كل فج وحدب ، الوفود التي ماجت بها الدروب الى قرطبة يوم كانت عروس الاندلس تتيه وتمرح في أفراح دائمة . لكنها اليوم تبدو يتيمة باكية على مـــا فرّط المسلمون في حقها فضيعوها .

لكننا – رغم ذلك – لا نَعْدِم أن نلمس عليها اليوم أمارات العز القديم ومَسحةَ الدلال الغابر.

سفارة أندلسية في بلاط الدانمارك *

تاريخنا الإسلامي في الأندلس لا يزال في كثير من جوانبــه بكراً أو مجهولاً ، بحاجـــة الى بحث وكشف ، والدبلوماسية الاسلامية في تلك البقعة أحد هذه الجوانب. وأرى أنها من أمتع الموضوعات للدارس ، وان كانت في عين الوقت من أشقها على على البحث وذلك لقلة ما وصلتنا عنها من النصوص التاريخية. ولا أشك في أنه ضاعت نصوص كثيرة قَيِّمة مما تتعلق بها، أمثال كتب إبن حَيّان القُرطبي وأحمد بن محمد الرازي وغيرهمـــا . والظاهر ان ما وصلنا هو القليل الذي أفلت ناجياً من مخالب الضياع بعوامله المختلفة .

ولدينا سفارة أندلسية تعتبر من أطرف ما عرفته الدبلوماسية

* نُشر في العدد : ٨٠ من « الملحق الأسبوعي » لجريـــدة « الجمهورية » البغدادية ، الخميس ٦/٤/١٩٦٧ .

في تاريخها خلال العصور . ولم يَرِد خبر هذه السفارة إلا في مصدر واحد من التي بين أيدينا . وهو مصدر متأخر عن تاريخ حدوثها بحوالي أربعة قرون .

وهذا سبب مهم في إنكار بعض الباحثين لأصالة هذه السفارة ؛ فلماذا لم توردها كتب المتقدمين ، والمعاصرين لها على وجه الخصوص؟ ولا أرى في هذا أي حجة فاصلة ، إذ انه لدينا أحداث أخرى لم ترد إلا في كتب المتأخرين ولم يروها غير مصدر واحد ورغم ذلك فما وجدنا من يقول بنكرانها .

ومصدرنا الوحيد لهذه السفارة هو كتاب « **المُطرِب من أشعار أهل المَغرب** » تأليف أبي الخطاب عمر بن الحسن بن دحية الكلبي الأندلسي ، المولود في بَلَنْسية Valencia (على ساحل الأندلس الشرقي) المتوفى في القاهرة سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م .

هاجم النورمان أو الفايكنج – سكان البلاد الاسكندنافية – لأول مرة سواحلَ الأندلس الغربية في خريف ٢٢٩هـ/٨٤٤م أيام عبد الرحمن الثاني (الأوسط) . والرواية الأندلسية تَعْرِف النورمان هؤلاء باسم « المجوس أو الأرْدُمانيون » ولا تعني الرواية هنا بـ « المجوس » مجوسَ عَبَدَة النار في فارس المعروفين بالزرادشت .

لقد ذَكر هجوم النورمان هذا عددٌ من المؤرخين الأندلسيين

منهم ابن القوطية في **تاريخ افتتاح الاندلس** وابن عِذاري في **البيان المُغرِب** وابن حيان القرطبي في **المُقتَبِس** وابن خلدون في **العِبَر**،[1] كما روته المصادر الأوربية .

وينقسم سكان البلاد الاسكندنافية الى ثلاثة شعوب هم : الدانماركيون والنرويجيون والسويديون ، واتجه كل منهم في نشاطه الحربي أو التجاري وجهة معينة . فالسويديون الى شرقي أوروبا والنرويجيون الى سواحل انجلترا الشرقية كما احتلوا جزيرة ايرلندا . أما الدانماركيون فهاجموا فرنسا وإسبانيا الشمالية ثم الأندلس ، وهم الذين احتلوا منطقة في شمال فرنسا والتي لا زالت حتى اليوم تحمل اسمهم « نورماندي Normandy » . ويكاد يكون من المؤكد تماماً ان الدانماركيين هم الذين هاجموا الاندلس وانهم جاءوا من الدانمارك نفسها ، ولم يكن الهجوم من قبل النرويجيين في إيرلندا أو من النرويج ، كما يقول البعض ، والأدلة التي تقف ضد الرأي الثاني كثيرة . وما دام المهاجمون هم الدانماركيون فتبعاً لذلك فإن السفارة النورمانية التي نحن بصددها جاءت من

---

(١) العُذري ، نصوص عن الأندلس ، ص ٩٨ – ١٠٠ ؛ إبن عِذاري ، البيان المُغرِب ، ٨٧/٢ ؛ إبن دِحيَة، المُطرِب من أشعار أهل المَغرِب، ص ١٣٨ – ١٤٥ ؛ المَقّري ، نفح الطيب ، ٣٢٣/١ ؛ إبن حَيّان ، المُقتَبِس (بيروت ، ١٩٦٥) ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٩ – ٢٥٢ ؛ عِنان دولة الاسلام في الاندلس ، ٢٨٠/١ – ٢ ؛ سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، س ٢٣٥ – ٧ .

الدانمارك Denmark لا من النرويجيين .

كان النورمان أمة بحر عريقة ماهرة في مـا يتصل بالبحرية وفنونها . وإذا كان قد أشيد بالعرب في مهارتهم بكل ما يتعلق بالخيل وركوبها ، ووَصفَهم الشاعر بقوله :

فكأنما وُلِدتْ قياماً تحتَهم

وكأنهم وُلدوا على صَهَواتهـا

فإن هؤلاء النورمـان في مهارتهم البحرية وكأنهم وُلدوا وترعرعوا في سفنهم الطويلة ذات الأشرعـة السوداء والمجاذيف الخفيفة . وكانت لهم قواربهم المدببة الجانبين السريعة الحركة ، ولذلك فحينما هاجموا الاندلس هجومهم المذكور أخذوها على غِرَّة وأرعبوها بالقتـل ، ثم يهربون بسرعة الى سفنهم . ولم يستطع الأندلسيون ردهم إلا بعـد فترة وتضحيات . لكن الاندلس أنشأت بعد ذلك بَحْريَّة قوية ردت بسهولة وبتفوق كلَّ هجمات النورمان التالية .

استطاع أهل الأندلس طرد النورمان في هجومهم الأول ، وتكبيدهم الخسارة في الأرواح والسفن وعادوا الى وطنهم . وكان النورمان في هذه الفترة — أواسط القرن التاسع الميلادي — قد بدأوا يدخلون المسيحية التي تأمر بالسلام ولا ترضى الاعتداء ، كما دخل ملكهم هوريك Horic في هذا الدين ، وأمام هذا التبدل

والنتائج التي انتهت بهـا عمليات هجومهم على الاندلس قرروا إنشاءَ علاقات سلمية ومعاهدة صداقة مع سلطاتهـا . فوصلت سفارة دانماركية الى بلاط قُرطُبَة في ربيع السنة التالية (٢٣٠هـ/ ٨٤٥ م) واستقبلهم أمير الأندلس عبد الرحمن الأوسط أحسن استقبال ووافق على رغبتهم ، وأرسل سفارة جوابيـة ذهبت بالطريق البحري الى الدانمارك بصحبة تلك السفارة لإتمام إبرام هذه المعاهدة بـين الطرفين . ولاستعين الآن بمقتطفات من إبن دحية وهو يحدثنا عن هذه السفارة التي صادفت أثناء مسيرتها البحرية الأخطار وعصفت بهم ريح شديدة وصفها الغزَال بشعره وهو يخاطب صديقه واسمه يحيى كذلك :

قـال لي يَحيى وصِرْنا

بـين موجٍ كالجبـالِ

وتولتنـا ريـاحٌ

من دَبـور وشَمـالِ

شقت القِلْعَين وانبَتَّت عُرى تلك الحبـالِ

وتَمطَّى مَلَكُ الموت

إلينـا عن حيـالِ

فرأينا الموتَ رأيَ العين

حـالاً بعـد حـالِ

لم يكن للقوم فينا
يا رفيقي رأسُ مالِ

ثم سلموا من تلك الأهوال...

وعند وصولهم الدانمارك أسرع الوفد النورماني بابلاغ مَلكهم نتائج سفارتهم الى الأندلس وعن وصول السفارة الأندلسية . وفرح الملك شديد الفرح وأصدر أوامره بتكريمهم وأعدّ لهم مَنزلاً حَسناً واحتفل بهم . لقد اندهش هؤلاء المجوس من الأزياء التي كان أعضاء السفارة الاندلسية يرتدونها لما فيها من جمال وغربة . وبعد أيام استراحوا فيها ، بدأ إعداد المراسيم لمقابلتهم للملك ، كان من جملة هذه المراسيم ان يركع (ينحني) السفير ومَن معه عند دخولهم مجلس ملك النورمان . واشترط الغزال الا يركع أحد منهم لأن هذا لا يجوز إلا لله تعالى ، واجيب إلى ذلك . لكن النورمان احتالوا بطريقة يَضطرون بها الغزّال إلى الركوع من غير أن يشعر. فوُضع في بداية المجلس مَدْخَلٌ ضيق منخفض لا يمكن للانسان الدخول منه إلا منحنياً . وسرعان ما أدرك الغزّال الحيلة بذكاءه، فلما وصل الى المدخل جلس الى الأرض وقدم رجليه ، مواجهاً بهما صدر المجلس ، وزحف على إليته حتى جازه ثم استوى واقفا ، وكذلك فعل أصدقاؤه .

وكان الملك قد جلس لهم في أحسن هيئة واحتفل

بالزينة الكاملة والأبهة البالغة والجند المسلحة ، إظهاراً للقوة والمَنَعَة .

فما هالت هذه المظاهر الغزّال ولا ذعرته بل وقف أمام الملك قائلا : « السلام عليك أيها الملك وعلى مَن ضمّه مشهدُك ، والتحية الكريمة لك، ولا زِلْتَ تُمتَّع بالعز والبقاء والكرامة المفضية بك الى شرف الدنيا والآخرة المتصلة بالدوام في جوار الحي القيوم الذي كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه المرجع » . ولما فَسَّر المُتَرْجِمُ للملك هذا الكلام قال : « هذا حكيم من حكماء القوم وداهية من دهاتهم. أردنا أن نذله فقابل وجوهنا بنعليه ولولا انه رسول لأنكرنا ذلك عليه » . وسلّم السفيرُ رسالةَ الأمير الأندلسي وقُرئت عليه فاستحسنها ثم رفعها ووضعها في حجره تقديراً ، ثم قُدّمت الهدايا التي أعجب بها الملك وبمحتوياتها من الثياب والأواني الأندلسية ذات الفن الرفيع . وقضى الوفد الاندلسي حوالي السنة في الدانمارك، في جتلاند Jutland ، أكبر جزائرهم، وربما في غيرها ؟ جرت له خلالها أحداث .

وكان للغزال معهم مناظرات ومجالس مذكورة ناقش فيها العلماء فأفحمهم كما نازل الفرسان وناضل الشجعان فغلبهم. ولعله ألقى هناك بعض المحاضرات تناول فيها الحديث عن الاسلام وتاريخه .

وكان الغزال وسيماً مهيباً احتفظ بوسامته حتى الكِبَر . وقد عَمَّر الغَزَال أربعاً وتسعين سنة ، ويوم خطه الشيب كان لا يزال قوياً محتفظاً باناقته ورشاقته وحسن صورته .

ويقول لنا المَقَّري في **نفح الطيب** بأن سفيرنا يَحيى ابن حَكَم البَكري لُقِّبَ بـ **«الغَزَال»** لجماله، وان الأمير عبد الرحمن الاوسط هو الذي لقبه به حين دخل عليه الغزال مرة ، فقال الأمير : « جاء الغزال بحسنه وجماله »(١) .

وكان الغزال فوق ذلك ذكياً عالي الذكاء ظريفاً جميل النكتة عزيز النفس حسن التصرف لاذع التهكم حاضر الخاطر ، ولقد لقب بـ « **حكيم الأندلس** » .

كان الغزال بهذه الصفات والقابليات فلا نندهش إذا ما أخبَرَنا ابن دحية عن قصة شيقة حدثت له خلال إقامته في الدانمارك. فحينما وصلت أخبار الغزال ومواقفه أسماعَ « نُود» زوجة هوريك ملك الدانمارك أُعجبت به وَوَجَّهت فيه لتراه، ولدى دخوله عندها ، وبصحبة المترجم ، سلم عليها وأطال الشُخُوص فيها متعجباً بجمالها ، فقالت له : لماذا تطيل النظر ؟ ألفَرْط استحسان أم عكس ذلك ؟ فأجابها : إني لم أتوهم أنّ في العالم منظراً مثل هذا. فطَرِبت الملكة لمديحه وزاد سرورها

(١) نفح الطيب ، ٣/٢٣ ؛ ابن عِذاري ، البيان المُغرِب، ٢/٩٣.

حينما عرض عليها أن يقول فيها شعراً . والظاهر ان الغزال أُعجب بالملكة الفاتنة الجمال. كما ان الملكة نفسها بادلته الاعجاب، حتى ان كَلَفها به بلغ حداً لم تعُد تصبر عنه يوماً حتى تستدعيه إلى مجلسها . **وكان يحادثها بسِيَر الاسلام وأخبار المسلمين وبلادهم وبمن جاورهم من الأمم**، وكان الترجمان ينقل الحديث من وإلى كلٍ منهما .

وسألته يوماً عن عمره فقال مداعباً : عشرون سنة ! فقالت له : وكيف وهذا الشيب في رأسك ؟ فأجابها : ألم تَرَيْ قط مُهْراً يولد أشهباً ؟ فضحكت « نُود » وأُعجبت بقوله .

وكان مما قاله الغزال من الشعر في الملكة :

كَلِفْتَ يا قلبي هَوى مُتْعِبا
غالبتَ منه الضيغم الأغلبا
إني تَعلّقتُ مجوسية
تأبى لشمس الحسن أن تَغرُبا
أقصى بلاد الله بي حيث لا
يَلقى إليه ذاهب مذهبا
يا نُود يا رَوض الشباب التي
تَطْلُعُ من أزرارها الكوكبا

وبعد انتهاء السفارة الاندلسية بنجاح وعَقْد معاهدة السلام

عاد الوفد إلى الأندلس بالطريق البرمائي هـــذه المرة . جاءت بحراً حتى ساحــل الشمال الاسباني الى مدينة َشنتَ يعقوب (سنتياكو دي كومبوستيلا Santiago de Compostela) مزوداً برسالة من ملك الدانمارك الى راميرو الأول Ramiro I ملك ليون الاسباني (المتوفى ٢٣٦ هـ / ٨٥٠ م) يوصيه بالسفارة الاندلسية خيراً . وبقي الغزال وصحبه هناك عند راميرو مدة ثم تابـع رحلته عن طريــق َقشْتَالة Castele الى طليطلة Toledo ليصل قرطبة Cordoba ويلحق بحضرة الأمير ، بعد مرور عشرين شهراً على رحلته الخطيرة الشيقة .

وهكذا كانت هذه السفارة الأندلسية أحد أوجه النشاط الدبلوماسي في تاريخ الغرب الاسلامي الذي نجهل عنه الكثير. هذا النشاط الذي يعبِّر بوضوح امين عن مدى مستوى التمدن الرفيـع الذي بلغته حضارتنا في الربوع الأندلسية الجميلة .

المصاهرات بين الأندلس وأسبانيا الشمالية *
في الفـترة الأمويـة

يجد الباحث َعلاقات كثيرة ومتنوعة بين الأندلس وإسبانيا المسيحية في الشمال من شبه الجزيرة الايبرية (اسبانيا والبرتغال) ، خاصة في الفترة الأموية وكان ذلك أمراً طبيعياً ، نظراً للجوار والاحتكاك في كل المجالات ؛ ويظهر بصورة أوضح في هـــذه الفترة . فكما قامت بين الطرفين علاقات دبلوماسية وتبــادل سفارات الى جانب العَلاقات الثقافيــة والأخرى العسكرية ، للتعاون ضد العدو المشترك ، كذلك قامت َعلاقات التزاوج

* ُنشر هذا البحث في مجلة (الأقلام) التي تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد العراقية (بغداد) ، الجزء السادس ، السنة الثالثة ، ذو القعدة ١٣٨٦ هـ / شباط ١٩٦٧ م . وقد ُنشر بالانجليزية :

« Intermarriage between Andalusia and Northern Spain in the Umayyad period » , *The Islamic Quarterly*, London, Vol. XI, Nos . 1 & 2, 1967 .

والمصاهرة ، وكان القليـــل من هذه المصاهرات ذات أهداف سياسية .

وكما كانت هذه المصاهرات مألوفة على مستوى الحكام كانت كذلك بين أفراد الشعب في الأندلس ، مسيحيين ومسلمين . ولا يقصد بألفة هذه المصاهرات انحصارُها داخل الحدود الأندلسية فقط بل – وعلى الاكثر – بين المسلمين في الأندلس والمسيحيين في دول الشمال الاسباني: ليون (Leon) وقَشْتاله (Castile) ونافار (Navarre) أو بلاد البَشْكُنْس (Bascques) .

ولعل هذا – بنفسه – دليلٌ على سياسة التسامح التي اتبعها المسلمون منذ الأيام الأولى لفتح إسبانيا ونتيجةٌ لتلك السياسة . والأمثلة على هذه المصاهرات أكثرُ من أن تُسْرَدَ في مثل هذا البحث القصير .

ومن أوائل الأمثلة التي ترد الى الذهن زواجُ والي الأندلس عبد العزيز بن موسى بن نُصَيْر المقتول سنة ٩٧هـ / ٧١٦م [١] ،

---

(١) تعدد القول في سبب قتله . وعن مناقشة هذه المسألة راجع : محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام في الأندلس، القاهرة ، ١٩٦٠، ١/ ٧٠–٧٢ ؛ حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ١٢٩ – ١٣٣ ؛ السيد عبد العزيز سالم ، تاريـــخ المسلمين وآثارُهم في الأندلس ، بيروت ، ١٩٦٢ ، ١١٣–١١٥ . ورَوى بعض المؤرخين أن زوجته ، أم عاصم ، أقنعته أن يتخذ سِمَةَ المُلْك ويلبس التاج ففعل ، فكان ذلك سببَ قتله. انظر : ابن عِذاري ، البيـــان المُغْرِب ، تحقيق كولان وليفي بروفنسال ، ليدن ، ١٩٥١، ٢/ ٢٣ – ٢٤ ؛ المَقَّري ، نفح الطيب، =

فهو لم يكتف بتشجيع التزاوج بين المسيحيين والمسلمين بل تَزَوَّجَ هو نفسُه من أَيْلُه (اخلونا Egilona) [١] أو أم عاصم ، أرملة رُذْرِيق (Rodrigo) ، آخر ملوك القُوط في إسبانيا.

وتَروي لنا المصادر قصة زواج مُنُوسَة (Munuza) من ابنة أودو (Eudes) دوق أكيتانيا (Acquitaine) ، جنوب فرنسا. كان مُنوسَة حاكماً لاحدى مناطق الأندلس الشمالية [٢] ، أيام الوالي عبد الرحمن الغافقي . وكان مُنوسَة على عَلاقات طيبة مع دوق أكيتانيا ، حتى عُقِد بينهما تحالف سري . وتأكيداً

= طبعة محمد محي الدين عبدالحميد ، القاهرة، ١٩٤٩، ١/ ٢٦٣ ؛ ابن القُوطيّة، تاريخ افتتاح الأندلس ، طبعة عبدالله أنيس الطباع ، بيروت ، ١٩٥٧ ، ص ٣٧ . ويملك الباحث الشك في هذه الرواية جملة وتفصيلا . قارن : ابن الأبّار ، الحُلّة السِيَراء ، تحقيق حسين مؤنس ، القـــاهرة ، ١٩٦٣ ، ٢/ ٣٣٤ ؛ عمر فروخ ، العرب والاسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط ، بيروت ، ١٩٥٩ ، ص ١٠٤ .

(١) ابن عِذاري، البيان ، ٢/ ٢٣ ؛ المَقَّري نفح، الطيب، ١/ ٢٦٣ ؛ مؤنس ، فجر الأندلس ، ١٣٠ – ٣ ؛ سالم ، تاريخ المسلمين ، ١١٣ ؛ رينو، تاريـــخ غزوات العرب ، ترجمة شكيب ارسلان ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٥٩ ، ١١٦ .

É· Lévi-Provençal , *Histoire de L'Espagne Musulmane*, Paris, 1950, vol. I, p. 33 ; S. M. Imamuddin, *A Political History of Muslim Spain,* Pakistan (Dacca), 1961, p. 20.

(٢) عِنان ، دولة الاسلام ، ١/ ٨٥ ؛ سالم، تاريخ المسلمين، ص ١٤١ ؛ رينو ، نفس المصدر ، ص ١١٦ .

لهذا التحالف تزوج مُنوسَة من لَمبيجيه (Lampégie) ابنة الدوق المعروفة بجمالها (١).

ولقد تزوج عدد غير قليل من حكام الأندلس بنساء مسيحيات من إسبانيا الشمالية (المسيحية) ذاتها. فالحكم الثاني، المستنصر بالله، المتوفى ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م، تزوج بامرأة بَشْكُنْسِيَّة (أي من بلاد نافار في الشمال الاسباني، التي كانت عاصمتها بنبلونة pamplona) وكان اسم زوجة الحكم هذه: « صُبْح » (٢)، وهو الترجمة العربية لأصل اسمها الإسباني (Aurora) أي الفجر. وهي أم هِشام المؤيَّد بن الحكم المستنصر ووريثه. وكان الحكم يُؤْثِرُها وهي حَظيَّة عنده كما يقول ابن عِذارى في بيانه (٣). وهي التي ساعدت المنصور

---

(١) وحين سار عبد الرحمن الغافقي الى جنوب فرنسا لبعض العمليات الحربية تلكأ مُنوسة في السير معه، بل وأخبر حَميَّه الدوق بذلك، مما أثار غضب الغافقي، فأرسل فرقة للقبض على منوسة الذي فَرّ مع زوجته إلى إحدى الغابات. وانتهى الأمر بقتل مُنوسة وأسر زوجته. راجع الحاشية رقم (٢) في الصفحة السابقة؛ مؤنس، فجر الاندلس، ص ٢٥٠-٣٠٣.

(٢) ابن عِذاري، البيان، ٢/٢٥٣؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، تحقيق ليفي بروفنسال، بيروت، ١٩٥٦، ص ٤٢، عِنان، تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، القاهرة، ١٩٤٧، ١٧٢-٣ ودولة الاسلام، ٢/٤٥٤، ٤٦٩.

(٣) البيان، ٢/٢٣٥، ٢٥٣.

(محمد بن أبي عامر) على تمكّنه من السلطة في الاندلس (١).

ولقد تزوج المنصور بن أبي عامر من تَريسا (Teresa) ابنة بَرمودُو الثاني (Bermudo II) ملك ليون (٢).

ويَروي ابن الخطيب في **أعمال الأعلام** (٣) خبر زواج آخر للمنصور من ابنة شانْجُه الثاني بن غَرْسِيَة (Sancho Garcés II) ملك نافار. وتُطلق المصادر الأندلسية عليها اسم « عَبْدَه » (٤) ويضيف ابن الخطيب أنها: « حَسَنَ

---

(١) ابن عِذاري، البيان، ٢/٢٢٥؛ ابن سعيد المغربي، المُغْرِب في حُلَى المَغْرِب، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة، ١٩٥٣، ١/١٩٤؛ عِنان، دولة الاسلام، ٢/٤٧١ وما بعدها؛ سالم، تاريخ المسلمين، ص ٣٢٦.

(٢) ابن خلدون، العِبر، بيروت، ١٩٥٨، ٤/٣٨٩؛ عِنان، دولة الاسلام، ٢/٥٣٠.

Lévi-Provençal, ibid., vol. II, p. 241 .

(٣) ص ٦٦، ٧٣.

(٤) هذا هو اسمها العربي. راجع: ابن عِذاري، البيان المُغْرِب، تحقيق ليفي بروفنسال، باريس، ١٩٣٠، ٣/٣٨؛ ابن الأبّار، الحُلّة، ١/٢٧٢ حاشية ١؛ عِنان، دولة الاسلام، ٢/٥٧٠؛ سالم تاريخ المسلمين، ص ٣٤٣.

Lévi-Provençal, ibid.; F. J. P. De Urbel, *Historia de Espana*, vol. VI, *Espana Cristiana*, Madrid, 1956, p. 315.

ولم أهتد الى معرفة أصل اسمها الاسباني.

إسْلامُها ؛ وكانت من خَيِّرات نسائه ، دِيناً مَتيناً وحَسَباً أصيلاً » . فأنجبت من المنصور عبدَ الرحمن الذي تولى حُكم الاندلس بعد أخيه عبد الملك المظفر بن المنصور .

وكان عبد الرحمن هذا يسمى – تدليلاً – « شَنْجُول » ، مُصَغَّراً لاسم جده شَانْجُهْ . وقد حضر شَانْجُهْ الثاني لزيارة حَمِيِّه المنصور في قُرْطُبَة سنة ٣٨٢هـ / ٩٩٢ م ، فاستقبله المنصور أعظم استقبال [١] . وكان هذا الإستقبال يوماً مشهوداً حَشَدَ له المنصور « الجيوشَ والمُطَّوِّعة لِتَلَقِّيه في دخوله الى قصر الزاهِرة ؛ فكان يومُه أَحدَ أيام الدنيا الشهيرة [٢] » . وأخرج المنصور في الموكب ابنَه عبدالرحمن (حفيد شَانْجُهْ) ، وكان لا يزال « طِفلاً يَرقُد في السَّرج ، فنزل جَدُّه اليه وقَبَّل رِجلَه ويَدَه » [٣] . وقَدِمَ موكب الملك النافاري الى مجلس المنصور ، حيث كان يجلس على سرير الخلافة الذي اغتصبه [٤] ،

---

(١) ابن الأبّار ، الحُلّة ، ١/ ٢٧٢ ؛ عِنان ، دولة الاسلام ، ٢/ ٥٧٠ ؛ وكذلك :

Lévi-Provençal, ibid., And *La Civilisation arabe en Espagne*, Paris , 1961,p. 110 .

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٧٣ .

(٣) ابن الخطيب ، نفس المصدر ، ص ٦٦ .

(٤) كان المنصور قد اغتصب الخلافة واتخذ صِفة المُلْك الذي توارثه أبناؤه من بعده . وقد استعملَ لذلك كل الوسائل من الغدر والقتل كما اتبع =

يحيط به رجال الدولة ، ثم انفض المجلس واستمرت المفاوضة وعاد الملك شَانْجُه الى بلاده .

ومن حكام الشمال الإسباني الذين شَجَّعوا هذا الاتجاه – المصاهرات – مورقاط (مورجاتو Mauregato) المتوفى سنة ١٧٣ هـ / ٧٨٩ م ، الذي استقل في جِلِّيقِيَّة (Galicia) متخذاً من برافيا (pravia) عاصمة له . لقد شجع مورجاتو بحماس زواجَ الفتيات المسيحيات من المسلمين [١] ، ولكن دعوته لم تلاق النجاح المطلوب .

وكانت عَلاقات المصاهرة قوية بين بني قَسِي المُوَلَّدين ، حكام الثغر الأعلى في الأندلس ، وبين حكام نافار في الشمال . فإن أرملة موسى بن فَرْتُون بن قَسِي تزوجت من وَنَقُهْ أريستا (Inigo Aritsa) ، الأمير النافاري ؛ كما أن موسى هذا زَوَّج بنات أخيه لُب لأولاد وَنَقُهْ بن شَانْجُهْ

= سياسة قضت على وَحدة الأندلس ، فهو حَرِيٌّ أن يُلَقب بـ « مُحَطِّم الأندلس » وواضع بذور فقدانه . قارن : ابن خلدون ، العِبر ، ٤/ ٣١٨ – ٣٢٠ ؛ عِنان ، دولة الاسلام ، ٢/ ٥٠٠ ، ٥١٩ ، ٥٣١ – ٥٣٤ . وكذلك:

Lévi-Provençal, ibid., vol. II,pp. 293-4.

(١) عِنان ، دولة الاسلام ، ١/ ٢١٦ . كذلك :

Lévi-Proveçal, *Hist. Esp. Mus.,* I. 117 .

(Inigo Sanchez) [1] .

ويَروي ابن حَزْم الأندلسي (القُرطبي) في جَمْهَرته [2] طَرَفاً من هذه المصاهرات التي قامت بين بني قَسِي وبين بيت وَنَقُه ، الأسرة النافارية الحاكمة . وكانت هذه العَلاقات من القوة بحيث كان بنو قَسِي يقفون أحياناً مع أصهارهم النافاريين في حربهم ضد المسلمين أو ضد الحكام المسيحيين الآخرين على السواء [3]. وقد حارب موسى بن موسى بن فَرْتُون بن قَسِي (أو القَسَوي) الى جانب أخيه فَرْتُون بن وَنَقُه (Fortun Iniguez) ضد أردونيو الأول (Ordono I) ملك ليون في معركة البَلْدة في سنة ٢٤٨هـ / ٨٦٢ م ، حيث قُتِلَ الحليفان [4] .

ولعل أطرف نموذج وأقوى مَثَل على هذه المصاهرات ما

(١) انظر بحثي «العَلاقات السياسية بين ثوار الأندلس واسبانيا المسيحية في الفترة الأموية » ، مجلة (الأبحاث) ، تصدرها الجامعة الأميركية ببيروت، عدد آذار ١٩٦٥ (السنة ١٨ – الجزء ١) ، ص ٤٧–٤٩.

(٢) جمهرة أنساب العرب ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٤٨، ص ٤٦٧ .

(٣) العُذري (أحمد بن أنس) ، نصوص عن الأندلس، تحقيق عبد العزيز الأهواني ، مدريد ، ١٩٦٥ ، ص ٣٠–٣١ ؛ عنان ، دولة الاسلام ، ٢٩٤/١ ، ٣٦٠/٢ .

(٤) Lévi-Provençal, ibid., II, 2.

ذُكِر من أن الخليفة الاندلسي عبد الرحمن الناصر المتوفى سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م كان حفيد سيدة نافارية . وكان هو نفسه ابن جارية اسبانية مسيحية ، تسميها الرواية الاندلسية «مُزْنَة» [1]، ولعل اسمها في الاصل « ماريا » . وأطرف ما في الامر أن طوطة (Toda) ، الملكة الوصية على عرش نافار (وكانت الحاكمة الفعلية لذلك البلد) ، المتوفاة سنة ٣٤٩ هـ / ٩٦٠ م ، كانت عمة الخليفة عبد الرحمن الناصر من جهة الأمومة . ولعله من الغريب أننا لا نجد في المصادر الإسلامية أي ذكر لقصة القرابة اللطيفة بين الخليفة الأندلسي والملكة النافارية . وكل الذي تذكره هذه المصادر عن الموضوع أشبه بعنوان القصة دون القصة ذاتها ، فتقول لنا هذه المصادر إن جدة الخليفة الناصر لأبيه محمد تسمى « دُرّ » [2] .

لكننا نجد القصة كاملة – تقريباً – في أحد المصادر اللاتينية [3]. وذلك أن «دُرّ» واسمها الإسباني وَنَقا (Iniga) هي ابنة فَرْتُون بن غَرْسِيَة (Fortun Garcés) (حفيد وَنَقُه أريستا (Inigo Arista) الملقب بـ « الأنْقَر » ، الذي

(١) ابن عذاري ، البيان ، ١٥٦/٢ .

(٢) ابن عذاري ، البيان ، ١٥١/٢ .

(٣) Oliver y Hurtado (Manuel), *Discursos* , No. 2, Real Academia de la Historia, Madrid, 1866, vol. III, p. 107 ; Lévi-Provençal, *La Civilisation*, pp. 109-10 .

– كما يروي ابن عِذاري (١) – اعتقله الأمير محمد بن عبد الرحمن الاوسط في قُرطُبة لمدة عشرين سنة . وأن ابنة الأنقر هذه تزوجت ، زواجها الأول ، من أمير نافاري هو أزنار بن شانجه (Aznar Sonchez) فأنجبت ونَقا (Iniga) من هـذا الأمير النافاري طوطة (Toda) مَلِكة نافار . ثم كان الزواج الثاني لـ«ونقا» من الأمير عبدالله ، جدّ الخليفة عبدالرحمن الناصر ، فأنجبت ونقا للأمير عبدالله محمداً أبا عبد الرحمن الناصر . فيكون محمد (أبو الناصر) أخاً لطوطة ، مَلِكة نافار من الأم ، وتكون طوطة عمةَ عبدالرحمن الناصر بن محمد عن طريق الأمومة .

والملكة طوطة هي التي وفدت على الناصر ٣٤٧هـ/ ٩٥٨م ، مع ابنها غرسيه بن شانجه الأول (Carcia Sanchez I) وحفيدها شانجه الأول (Sancho I) الملقب بالسمين ، ملك ليون المخلوع (٢) ، ساعية في عقد معاهدة سلم وصداقة مع قرطبة ومناشدة الناصر الإعتراف بابنها ملكاً ، تحت وصايتها ، وراجية منه مساعدة حفيدها في استرداد عرشه (٣) ومعالجته من سمنته المفرطة ، التي كانت أحد أسباب عزله . وقدبلغت

(١) ابن عذاري ، البيان ٢/ ٩٧ .

(٢) فيكون هذان الملكان من أقارب الخليفة الناصر أيضاً .

(٣) ابن خلدون ، العبر ، ٤/ ٣١٠ .

سمنته حداً منعته من ركوب الخيل ومن المشي دون مساعدة (١) .

فاستقبل الناصر عمتَه الملكة طوطة والوفد المرافق لها (٢) بحفاوة وأُبَّهة بالغتين في قاعة استقبال السفراء في قصر الخلافة بمدينة الزهراء ، واستجاب لطلباتها (٣) .

وكان الذي أشرف على علاج حفيدها طبيب الناصر الخاص ، حسداي بن شبروط اليهودي (٤) . ثم ردّها الخليفة الى بلدها بكرامة وحفاوة .

وهكذا نرى الى أي حد كانت المصاهرة مألوفة على كل المستويات بين الاندلس واسبانيا الشمالية (المسيحية) . ولربما أسهمت – هذه المصاهرات – الى حد ما في توطيد علاقات الجوار بين الأندلس وحكام الشمال الاسباني في شبه الجزيرة الإيبيرية .

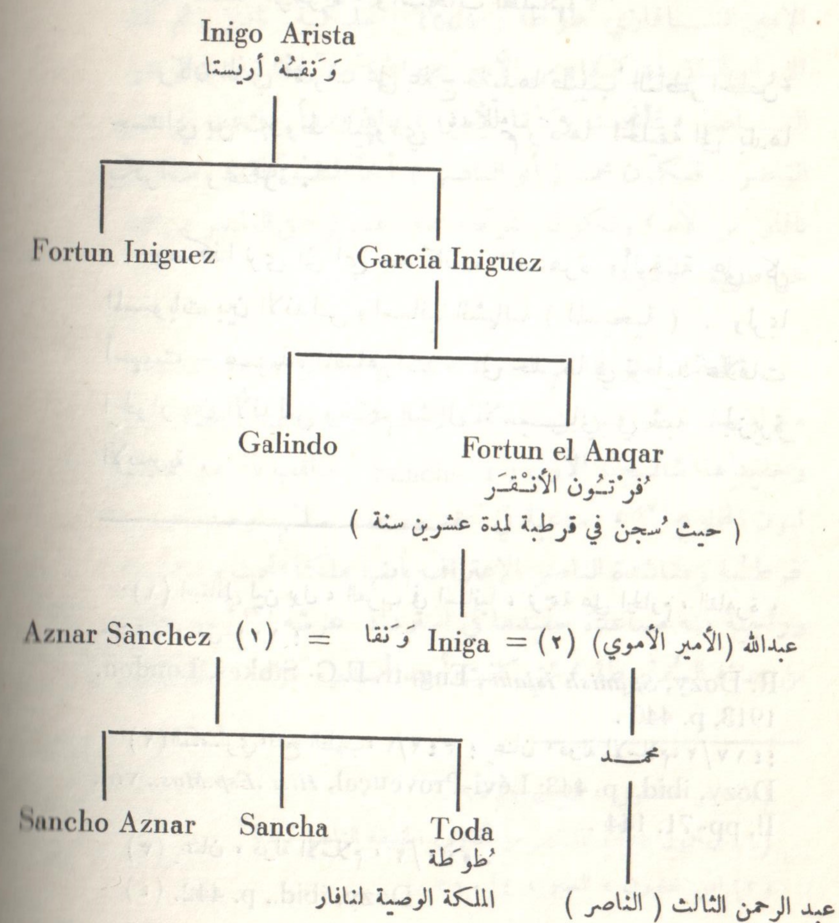
(١) استانلي لين بول ، العرب في اسبانيا ، ترجمة علي الجارم ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ١١١ ؛
R. Dozy, *Spanish Islam* , Eng. tr. F. G. Stokes, London, 1913, p. 440 .

(٢) المقري ، نفح الطيب ، ١/ ٣٤٢ ؛ عنان ، دولة الاسلام ، ٢/ ٤١٧ ؛
Dozy, ibid., p. 443; Lévi-Proveuçal, *Hist .Esp.Mus.*, vol. II, pp. 71, 144 .

(٣) عنان ، دولة الاسلام ، ٢/ ٥٤٠ .

(٤) Dozy, ibid., p. 442.

عَلاقات المُصاهرة بين حكام الأندلس ونافار



نقد لكتاب :

تاريخ إسبانيا الإسلامية *

تأليف : و. مونتكمري واط . مطبعة جامعة أدنبرة (بريطانيا) ، ١٩٦٥ ، عدد الصفحات ١٠ + ٢١٠ ، الثمن ٢٥ شلناً (والكتاب باللغة الانجليزية) .

W. Montgomery Watt, *A History of Islamic Spain* (Islamic Surveys No. 4), E.U.P. 1965, X + 210 pp. 25s.

هذا الكتاب الذي يُقَدَّم لك الآن – أيها القارىء الكريم – كان قد صدر ضمن سلسلة « دراسات إسلامية (عامة) » والتي وُضعت لِتُقَدِّم للقارىء المثقف شيئاً أكثر مما يُوَفِّره له كتاب عادي . بالإضافة إلى أن المؤلِّف قد ألحق الكتاب بملاحظات حول المصادر التي « تكون بمثابة مرشد لأولئك الذين يرغبون

* نشر هذا النقد باللغة الانجليزية في مجلة :
The Islamic Quarterly, London, 1966, Vol. X, Nos 3 & 4.
وبالعربية في مجلة (الأقلام) ، الجزء السابع ، السنة الثالثة ، آذار ١٩٦٧ .

متابعة دراساتهم » في هذا الحقل .

والكتاب يحتوي على مقدمة وأحد عشر فصلاً ذات أقسام . وهو مزود بقائمة المصادر التي رجع إليها المؤلف وكشاف عام Index ، كما أن الدكتور Cachia قد كتب قسماً إضافياً عن الأدب . والكتاب مزود بـ ١٧ صورة إيضاحية وخريطتين .

ويوضح البروفسور واط في المقدمة خطته بأنه يدرس اسبانيا الاسلامية (الأندلس) لوحدها وكذلك مرتبطة ببقية العالم الاسلامي ومع علاقتها وإسهامها في حضارة أوروبا . فالفصول ١ – ٤ ، ٦ ، ٨ ، و ١٠ مكرسة – أصلاً – لتاريخ اسبانيا الاسلامية السياسي ، من بداية الفتح الاسلامي لشبه الجزيرة الإيبيرية : (اسبانيا والبرتغال) في سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م ، حتى سقوط غرناطة في ٨٩٧/١٤٩٢ . وفي هذه القرون الثمانية كانت الأندلس (اسبانيا الاسلامية) قد جربت أحوالاً مختلفة وكانت لها علاقات متنوعة مع عدد من الدول ، علاقات ثقافية وعسكرية ودبلوماسية بالاضافة الى المصاهرات خاصة مع دول اسبانيا المسيحية في شمال شبه الجزيرة الإيبيرية . ويمكن تقسيم التاريخ الأندلسي إلى عدة عصور :

١ – عصر الولاة : ويبدأ من الفتح الاسلامي للأندلس في

سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م حتى ١٣٨ / ٧٥٥ . وحكم الأندلس في هذه الفترة حوالي عشرين والياً كانوا خاضعين للخلافة الأموية في دمشق (الفصلان : الاول والثاني) .

٢ – عصر الإمارة : ويبدأ بمجيء عبدالرحمن الاول (الداخل) في ١٣٨ / ٧٥٥ حتى إعلان عبدالرحمن الثالث (الناصر لدين الله) الخلافة الاندلسية في ٣١٦ / ٩٢٩ ، حيث حكم سبعة أمراء (الفصل الثالث) .

٣ – عصر الخلافة : ويمتد حتى موت الحكم الثاني (المستنصر بالله) في ٣٦٦ / ٩٧٦ ، أو – على رأي البعض – حتى نهاية الدولة العامرية ، أي آخر القرن الرابع الهجري / بداية القرن الحادي عشر الميلادي (الفصلان : الرابع والخامس) .

٤ – يتلو ذلك عصر من الفوضى أدت الى « عصر ملوك (أو دول) الطوائف » . وهذا انتهى بقيام دولة المرابطين في الاندلس في ٤٨٤ / ١٠٩٢ التي حلت مكانها دولة الموحدين ، في حوالي ٦٢٠ / ١٢٢٣ . اتسع ذلك عصر آخر من الفوضى (الفصول: السادس والسابع والثامن) .

٥ – مملكة غرناطة (دولة بني الأحمر) التي أسسها محمد بن الأحمر (ابن يوسف بن نصر) في ٦٣٠ / ١٢٣٣ واستمرت حتى ٨٩٧ / ١٤٩٢ ، التي يمثل سقوطها نهاية الحكم الاسلامي في شبه الجزيرة الايبيرية (الفصل العاشر) .

وفي الفصلين الخامس والتاسع يدور الحديث حول الانجازات الثقافية والحياة الفكرية (الدين والعلوم والشعر والآداب الرفيعة والفن والفلسفة وعلم التاريخ والتصوف) . ويتحدث الفصل الحادي عشر عن « أهمية اسبانيا الاسلامية » ، وهو تقويم للتراث الاندلسي وأثره وتأثره .

وفي كل فصل توجد مقدمة فيها نظرة عامة على العصر السابق وملامحه التي أنتجت عصراً جديداً ثم حوادث هذا العصر وتحليل نقاط معينة فيه ، وإلقاء بعض الأضواء عليها والكلام عن أسبابها ، متأثرة باتجاهات معينة للمؤلف وتخدم أغراضاً خاصة لديه ، الطبقات الاجتماعية والدين والحياة الاقتصادية والمظاهر الاخرى . وقد جُمعت الحواشي وبعض التعليقات في آخر الكتاب مع مراجع لمن يريد دراسة أوسع .

. . .

وهنا لا بد من توجيه ثلاثة أسئلة :

١ – هل حقق الكتاب الغرض الذي وُضع من أجله ؟

٢ – هل يُعطي الكتاب صورة متكاملة للتاريخ الاندلسي ؟

٣ – هل أيد المؤلف استنتاجه بالنقاش والحجة القائمين على البحث العلمي ؟

حتى لو اعتبرنا المؤلف كتاباً للمعلومات العامة « وهو غير

قائم عموماً على أساس من موازين البحث الدقيقة) فهو ليس كافياً دائماً للقارىء المثقف او الطالب المتتبع لهذا الحقل . كما أن المفروض عموماً أنه كتاب تاريخ (تاريخ سياسي) فالتاريخ هو أقل ما يتحدث عنه المؤلف في مناقشاته التي غالباً ما تنقصها الدقة والواقعية التاريخية ، بالاضافة الى الاشارات المتكررة للتاريخ الاسلامي المبكر (مثلاً : الاحداث في الشرق الاسلامي) والتحليلات المفصلة محاولاً إسناد فكرة معينة أو رأي يعتقده . وإن مثل هذه الطريقة تُوجد ، بين الحين والحين ، فجوات بين الفكرة والتي تليها ، لا يسهل ملؤها ؛ كما انها تُوجد الإرتباك بسبب ضياع وحدة الفكرة – أحياناً – لأن المناقشات تنقطع بالاشارات الى بعض النواحي أو الاحداث المبكرة في التاريخ الاسلامي وللمؤلف أحكام تعسفية ، كالحديث عن الجهاد ، على حساب معالجة القضايا ، ذات العلاقة بالتاريخ الاندلسي ، التي كان المؤمل مناقشتها ، مثل ظروف عبور الجيش الاسلامي الفاتح للأندلس .

وحين يتحدث المؤلف عن حضارة الاسلام في شبه الجزيرة الايبيرية يهمل جوانب عدة منها : الجغرافية والرقي الملاحي (البحري) والعلوم البحتة والسياسة الخارجية والعلاقات الدبلوماسية مع الاقطار المتعددة ، كما انه لم يعط صورة متكاملة لأحداث تاريخية وأثرها على الأندلس كالهجومات المتكررة للنورمان (Vikings أو الأرْدُمانيون أو المجوس) على الاندلس

في الفترة الأموية .

فالكتاب إذن يُعطي صورة عامة بسيطة (موجزة) . فبينما يزودنا المؤلّف بتحليلات لبعض القضايا ، وفي حدود ، وفي ضوء الاحداث ، على حين يظهر مجانباً للصواب في استنتاجاته ويبني أحكامه على تحليلات ذات طابع شخصي (غير علمي) ، الى حد ما ، تتفق مع فهمه الخاص للحقائق . وهذا الاسلوب ، إذا فات غير المهتم بالتاريخ الاندلسي كشفه ، فلا يفوت المتتبع لحقل الدراسات الاندلسية . ولعل هذا الاتجاه لدى المؤلّف ناتج عن حقيقة هامة هي أن الاستاذ واط يكتب في غير حقله ، ودون تمكن أو هضم للمادة ، على ما يظهر ، معتمداً إلى حد كبير على مصادر أوروبية ثانوية ، لا تكفي وحدها لهذا العمل ولا «لادراك كيفية إسهام الماضي فى صياغة الحاضر» . فنجد المؤلف يمر مروراً عابراً على أحداث حاسمة ، حين يجد الحديث المفصّل لا يخدم واحداً من أغراضه ، مثل غزو شارلمان للأندلس في سنة ١٦١ / ٧٧٨ (ص ٣٤) وعبور طارق بن زياد (ص ١٣ – ١٤) ومسألة خطبة طارق وحرقه للسفن .

ولقد أكد المؤلّف على ضعف اسبانيا وفساد أحوالها قبل الفتح الإسلامي ليحاول بذلك بيان أن أيّ جيش كان باستطاعته القيام بهذا الفتح كما أسند عمليـة الفتح الاسلامي الى محفزات صوّرها فهمه غير الواقعي ، وهو وإن سماها « **جهاداً** » ولكن كما يفهمه هو ، فهماً يخالف كل النصوص والوصايا والاحداث

التاريخية المتوافرة المتواترة عن الجهاد . فصورة « **الجهاد** » لدى الاستاذ واط صورة اخرى – غير اسلامية – تنسجم مع مفاهيمه الخاصة الغربية غير الواقعية . فصورة الجهاد عنده هي : الغنائم وتقليل عدد السكان بالقتل – أثناء العمليات الحربية – كعلاج لقلة الغذاء ، وربما أسباب أخرى !

لا بد أن نتذكر دوماً أن الجيش الاسلامي الذي فتح اسبانيا بقيادة طارق كان اثني عشر ألفاً بينما كان جيش القوط بقيادة لذريق (Roderick=Rodrigo) أربعين ألفاً حسب قول ابن خلدون الذي يُعتبر من أكثر الروايات المحافظة (**العبر** ، بيروت ، ١٩٥٨ ، ٤ / ٢٥٤) ، بينما أوصلت روايات أخرى تعداد جيش القوط الى مئة ألف . إن ضعف اسبانيا كان حقيقة ولكن لولا الروح المعنوية التي كان يتمتع بها الجيش الاسلامي والمستمدة من معاني « **الجهاد** » وبالمفهوم الاسلامي النقي ، خدمةً للفكرة ، لما حقق المسلمون الا القليل . كانت الغنائم – كالعادة – نتيجة للنصر ولم تكن غاية للفتح ، كما إن الغنائم لم تكن محفزاً كافياً لتكوين جيش منظم الى درجة تؤهله لمثل هذا النصر العظيم ، وبهذه السرعة ، وكذلك يؤهله الى الاحتفاظ بمكتسباته ثم بناء حضارة رفيعة فيما بعد الاستقرار في اسبانيا ودخول عدد من المسلمين اليها . ويفسر المؤلّف ، تفسيراً خاصاً ، ذلك النشاط الاسلامي ومبرراً فهمه – على طريقته هو – لكل تصرفات القادة والخلفاء خلال الفترة الاندلسية ويكاد يشك في نواياهم

جميعاً !!؟ (ص ٤٣ ، ٩٠ ، ٩٨) .

وفي الفصل الثالث المتعلق بفترة الإمارة يُخَصّص المؤلِّف قسماً كبيراً من حديثه عن الثورات الداخلية ليصور عدم أهلية وكفاءة السلطة الاندلسية . وعند الحديث عن الاقليات (ص ٥٣ وبعدها) ينسى المؤلف (أو يتناسى) بأن هذه الاقليات كانت متمتعة بكل أنواع الحريات بدرجـــة ليس أقل من التي سيتمتعون بها لو سكنوا مجتمعاً لأبناء ملتهم (راجع : رينو ، **تاريخ غزوات العرب**، ترجمة وتعليق شكيب أرسلان، بيروت، ١٩٦٦، ص ١٥٦، ٢٣١، ٢٨٨-٩ ، ٣٠٣ - ٥؛ وكذلك كتاب:

Altamira y Crevea, *Historia de Espana,* Barcelona,1900, Vol· I, p. 229.

ومن ناحية اخرى يتحدث الاستاذ واط (في الفصل الأول) بتفصيل عن الفتوحات وعوامل انتشار الاسلام مكرراً التأكيد: بأن انتشار الاسلام في شبه الجزيرة العربية كان بالقوة وأن بسط سلطان الاسلام كان بعوامل بعيدة عن الدين (ص ٧ - ٩، ٢٤). كل ذلك دون تدليلات ، كانت أحكامه بأشد الحاجة إليها ، لكنه فضّل أن يلقيها دون برهان ، ودونما سبب يمسكه عن الإدلاء بها ! فهل انه يدرك - في قرارة نفسه - بطلان هذه الاحكام أم أن تفكيره لم يسعفه هذه المرة باقتناص دليل ، اي دليل ؟ [في مناقشة مثل هذه الآراء راجع : محمد كرد علي ، **الاسلام والحضارة العربية**، القاهرة، ١٩٥٠ ، ١/١٥٠ وبعدها] .

فالإسلام الذي يُصَوِّره المؤلِّف هنا هو « إسلام » كما يصوره بعض المستشرقين وأبدعه خيالهم ، وليس هو إسلام القرآن الكريم ورسوله عليه الصلاة والسلام .

وحين يتحدث البروفسور واط عن التراث الفكري للأندلس ويذكر مصادره الاولى ، يتعرض للفلسفة فيذكر ابن طُفَيْل (ص ١٣٧ - ١٣٩) وابن رُشْد ، أما ابن حَيّان القُرْطُبي ، الذي يعترف المؤلِّف بأنه « أهم المؤرخين الأوائل » (ص ١٣٦) ، فيذكره في سطرين .. بخٍ .. بخٍ .. فقد عَرَف المؤلِّف كيف يُجَنِّب نفسه مشقة التعرف على إبن حَيّان القُرْطُبي « شيخ المؤرخين » الاندلسيين . وحين يأتي الحديث عن قصة السيِّد القَمْبيطور (El Cid) يُهمل المؤلِّف ذكر نصّ ابن عَلْقَمة ، شاهد عيان ، عن الوحشية التي ارتكبها « السيِّد » في حق أهل بلَنْسِيَة وحَرْق قاضيها أبن جحاف [راجع: إبن عِذاري ، **البيان المُغْرِب** ، الجزء الرابع ، تعليق إحسان عباس، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ١٤٧ - ١٥١ ؛ ابن الأبّار، **الحُلَّة السِّيَراء**، تحقيق حسين مؤنس ، القـاهرة ، ١٩٦٣ ، ٢/١٢٥ - ١٢٧ ؛ حسين مؤنس ، بحثه عن السيد القمبيطور في **المجلة التاريخية المصرية** ، القاهرة ، ١٩٥٠ ؛ ليفي بروفنسال، **الاسلام في المغرب والاندلس**، ترجمة السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٢٢٤ ؛ محمد عبدالله عِنان ، **دول الطوائف** ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٢٣٤] بل ويكرر المؤلِّف

وصف « السيد » بالبطولة بأضعف (أو بدون) تبرير (ص ٩٤).

لكن المؤلّف حين مناقشة الحياة الاقتصادية في الأندلس وأسباب نموها وإنتاج البلاد فإنه يصف ذلك بوضوح وبتفصيل وبيانات مهمة وهذه ناحية مهمة وهي تمثل حسنة في الكتاب ، بينما على العكس حين الكلام عن أسباب وحدة الأندلس وسقوطه يهمل أسباباً هامة مثل سياسة المنصور بن أبي عامر الخارجية والداخلية .

أما في الحقل الثقافي والاجتماعي والحياة الفكرية فإن الاستاذ واط لديه وجهة نظر هامة ! (خاصة به)،وينشغل مرة أخرى بالحديث عن شبه الجزيرة العربية ليؤكد « أن ثقافة المسلمين الأوائل في الأندلس عربية أكثر منها إسلامية » (ص ١٦٦) . الرأي مرتبك ما دام لم يُحدَّد وان الأدلة عليه افتراضية بصورة رئيسية . وبإشارته (ص ١٣٠) بأن « اللغة بالنسبة للمسلمين العرب لم تكن مجرد عرف – أو اصطلاح – بشري (اجتماعي) بل شيئاً أوجده الله » ، يَظهر المؤلف وكأنه عربياً أكثر من العرب! ويذكر المؤلف أن إبن حَزْم القُرْطُبي[1] قد اشتكى من قلة التقدير الذي ناله ، لكنه ينسى – أي المؤلّف – أن إبن حزم هو الذي اعتز بياقوتة اسبانيا وحدها مكتفياً بها عن

(١) عن ابن حزم انظر ص ١٠٥ وبعدها .

امتلاك كل درر الصين ، فيقول :

ويا جَوْهَرَ الصين : سُحقاً فقد
غَنِيتُ بياقُوتَةِ الانْدَلُس

لم تكن جميع المقارنات التي قُدّمت في الكتاب متوازنة تماماً: فإذا كان (ص ١٥١) للمُدَجَّنين (وهم: المسلمون الذين عاشوا تحت ظل الحكم المسيحي الإسباني) حاكمهم المسلم الذي عينته السلطات المسيحية فالكتاب لم يوضح بأن الأقليات التي عاشت تحت ظل الحكم الإسلامي في الاندلس (مسيحيين أو يهود) قد اختارت هي نفسُها حاكمها،وأنه – في الاندلس على الأقل – لم تُجْبَر هذه الأقليات ، في ظل الحكم الاسلامي ، ان تلبَس لباساً خاصاً تتميز أو تُعرف به . ولا يمكن التسليم مع المؤلّف حين الحديث عن الحب العذري في الاندلس بأنه على الأغلب ذو أصل اسباني، خاصة وانه نفسه يَذكر في نفس الصفحة (ص١١٦) ترجمة لاتينية لأحد بديهيات الحب العذري لدى العرب « إن المحب لمن يحب مطيع » [عن مناقشة هذا الموضوع راجع : ليفي بروفنسال ، **الاسلام في المغرب والأندلس** ، ص ٢٩٤] .

وهنا يأتي ذكر أمر مهم تركه المؤلّف وهو أنه لم يزود كتابه بدراسة مستقلة (أو كافية) عن تاريخ اسبانيا المسيحية وأرضَى نفسه بإشارات عابرة عنها ؛ بينما لا يمكن دراسة تاريخ اسبانيا الاسلامية (الاندلس) أو المسيحية منفصلاً أحدهما عن

الآخر ، وان هذا الارتباط الذي لا بد منه بين الاثنين تنبه له المؤرخون الاندلسيون فأفردوا قسماً خاصاً لتاريـــخ اسبانيا المسيحية ، كابن خلدون وابن الخطيب [ابن خلدون ، **العبر** ، ٣٨٥/٤-٣٩٧ ؛ ابن الخطيب ، **أعمال الأعلام** ، تحقيق ليفي بروفنسال ، بيروت ، ١٩٥٦ ، ص ٣٢٢-٣٣٨] .

ويتبين من الشروح والحواشي أن المؤلـّف لم يرجع مطلقاً إلى المصادر الأولى للتاريخ الاندلسي : أمثال مؤلفات إبن حَيّان وابن عِذاري والعُذري وابن سعيد المغربي وابن الأبّار وابن الخطيب والمَقـّري (الذي ترجم كاينجوس Gayangos منتخبات من **نَفْحه** إلى الانجليزية) وغيرهم .

فحتى لو سلمنا أن الكتاب دراسة عامة عادية فإن الإشارة إلى مثل هذه المصادر الأولى كان سيكون مفيداً إن لم يكن ضرورياً . فكم ستكون قيمة كتاب عن تاريخ الاندلس خال من المصادر العربية الأولى أو على الأقل ترجماتها؟ علماً بأن المؤلف يعرف العربية على ما يتضح . أليس هذا دليلاً على أن المؤلـّف يكتب في غير حقله ودون أهلية ؟ إن المؤلف الذي يحترم تخصصه أو يحترم البحث العلمي لا يخاطر بوضع نفسه هذا الموضع .

وفي قائمة المراجع يذكر المؤلف مصادر عربية حديثة (لم يرجع هو إليها بل ذكرها لمن أراد الاستزادة)، بعضها ذو قيمة

كبرى ، لكنه أهمل مؤلفات عدد من المتخصصين في هذا المجال أمثال محمد عبدالله عِنان وحسين مؤنس .

إن هذا الكتاب الذي يشمل كل تاريخ الأندلس وجوانبه الحضارية ، مما لا يفي به كتاب بهذا الحجم والمنهج ، لا يمكن قراءته دون تحفظ كما لا يمكن الاعتماد عليه ، وحتى من وجهة النظر الغربية ، على حساب المستشرقين الآخرين الذين قدموا إنتاجاً طيباً – عموماً – في هذه الدراسات أمثال : دوزي الهولندي ورينو وليفي بروفنسال الفرنسيين.

وفي الفصل الأخير من الكتاب « أهمية إسبانيا الاسلامية » يُقَوِّم المؤلف الأندلس – ويظهر هنا معتدلاً إلى حد ما – وانه ، وخاصة هنا ، لَتَثمين مهم واعتراف بمكانة إسبانيا الاسلامية وإثرها على أوروبا.

ابن حيان القرطبي
مؤرخ الأندلس *

ما تزال جوانب كثيرة من الدراسات الأندلسية ميداناً خصباً للباحثين ، والأمر سواء فيما يتعلق بالعلوم البحتة أو الدراسات الإنسانية وكافة التراث الفكري الذي أنتجته قريحة الحضارة الإسلامية في تلك البقعة الحبيبة من أرض الهدى والنور .

ولا شك ان هذا الوصف ينطبق كذلك على أبطال هذه الحضارة وبُناتها الذين أسهموا بعبقرياتهم في إقامة هذا البناء في كافة الميادين . فإن هؤلاء وأعمالهم بحاجة الى تعريف ودراسة .

---

* نُشر في جريدة (الدعوة) التي تصدر في الرياض ، العدد ١٥٤ ، ٣٠-٢-١٣٨٨/٢٧-٥-١٩٦٨ .

وقد لا نعرف عن كثير منهم إلا القليل ،وما نعرفه من إنتاجهم اقل ، وآخرون قد فُقد بعض إنتاجهم أو ربما جميعه .

ومن هؤلاء ذلك العالم الأديب المتمكن والمؤرخ النزيه والناقد الجريء : إبن حيّان القرطبي ، الذي يستحق منا لقب « **مؤرخ الاندلس** » . وللأسف لم يصلنا من إنتاجه إلا القليل الذي أفلت من يد الضياع وعميت الجهالة عن إعدامه .

واسم هذا المؤرخ الكامل : أبو مروان حيّان بن خلف بن حسين بن حيّان بن محمد بن حيّان القرطبي ؛ واشتهر بـ « **ابن حيّان** » وإذا أطلقت هذه الكنية « **ابن حيان** » فلا تدل لأول وهلة إلا على أبي مروان حيان بن خلف المؤرخ .

ولد مؤرخنا في قرطبة سنة ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م وبها تُوفي في يوم الأحد ٢٨ من ربيع الأول ٤٦٩هـ/٣٠ تشرين الأول (اكتوبر) ١٠٧٦ م [١] . وهو أموي بالولاء ، وكان جده الأول حيّان مولى لعبد الرحمن الداخل كما كان أبوه خلف بن حسين من كُتّاب المنصور بن أبي عامر [٢] .

---

(١) ابن بشكوال ، الصلة ، ص ١٥٤ .

(٢) ابن الأبار ، إعتاب الكُتّاب ، ص ١٩٨ .

مكانته

أكثر المؤرخون النقل من مؤلفاته ، ولقد أضحت المنقولات عنه تُعطي قيمة أخرى مهمة للنص الذي يتضمنها ؛ ذلك بديهي لأن ابن حيان كان عالماً من الطراز العالي واسع الدراية في مختلف الميادين ، لكنه في التاريخ أبرز . وتدلنا كتابته في التاريخ على أدبه الرفيع وانه صاحب أسلوب سلس معبر رصين سهل العبارة مع فصاحة وبلاغة وبعد عن التزويقات اللفظية والزركشة السطحية .

لقد أثنى عليه كافة الكُتّاب تقريباً (والمؤرخون خاصة) ووصفوه بمختلف أوصاف الثناء التي تدل على مكانته الممتازة لديهم وعلو كعبه في عدد من العلوم ، لكنه اشتهر كمؤرخ مرموق المكانة . فأورد ابن سعيد المغربي [١] في وصفه بأنه « **شيخ الأدب والمؤرخين** » في الأندلس . وذكر الحميدي [٢] بأن « له حظ وافر من العلم والبيان وصدق الإيراد » .

مؤلفاته

أهم مؤلفات ابن حيان ، وهي كثيرة ، في التاريخ . أوصل

(١) المُغْرب في حُلى المَغْرب، ١/١١٧.

(١) جذوة المقتبس ، ص ١٨٨ ؛ ابن بسام ، الذخيرة، ١/٢/٨٥ .

بعض الكُتّاب مؤلفاته الى خمسين مؤلفاً، للأسف فقد أكثرها ، وليس لنا من بعضها إلا منقولات والباقي لا نعرف غير أسمائها ، منها كتاب « **المتين** » ويقع في ستين جزءً فقدت كلها .

والكتاب الوحيد الذي بقيت لنا منه بعض أجزاءه هو كتاب «**المُقْتَبِس في أخبار بلد الأندلس**» في عشرة أجزاء بقي أقلها . وقد قمت بتحقيق أحد أجزاءه ونشر في بيروت ١٩٦٥ . والأمل أن تظهر الى النور أجزاء أخرى من هذا المؤلف القيم الذي يعتبر من أهم المؤلفات في التاريخ الاندلسي .

فابن حيان بحق عميد المؤرخين الاندلسيين وإمامهم لا بمعلوماته وإحاطته بالأحداث التاريخية ومجريات الأمور بدقة وتفصيل بل وكذلك بصواب نظرته وطريقة تحليله وتعليله وأصالة رأيه وعدالة نقده ونزاهة حكمه ؛ بالإضافة الى استفادته من تواليف السابقين له في هذا الحقل، الذين فقد انتاجهم . وتصل الدقة في أخباره انه لا يكتفي بتعيين يوم الحادثة التي يذكرها بل يذكر الساعة ، كما يعطي أحياناً التاريخ الهجري ومقابله الميلادي [١] .

(١) المقتبس ، طبعة بيروت ، ص ٢٨ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ١٠١ ، ١٠٧ . وراجع مقدمة هذا الجزء من المقتبس .

ومن أسف أن إبن حيان لم يظفر لحد الآن بدراسة تتناسب ومكانته ، والرجاء أن تظهر عنه دراسة علمية شاملة حياته وانتاجه .

رحم الله مؤرخ الأندلس ابن حيان القرطبي أحد بُناة حضارة الاسلام في الاندلس وأظهرَ مزيداً من إنتاجه للنور .

ابن حزم القرطبي *

من خلال كتابه "طوق الحمامة"

تلتْ سقوطَ الخلافة الأندلسية سنة ٤٠٠ هـ/١٠٠٩ م فترةٌ من الفوضى أدت الى قيام ما يسمى بـ « ملوك أو دول الطوائف » في الأندلس ؛ حيث ضاعت وحدتُه بقيام هذه الدول المستقلة المتناثرة المتهافتة التي قامت بينها الحروب والنزاعات . وكان لسياسة المنصور محمد بن أبي عامر ، في داخل الأندلس وخارجه ، أثرٌ في هذه النهاية المحزنة التي حلت بالأندلس .

وفي هذا الجو السياسي المرْتبك نشأ العبقري والمفكر الكبير إبنُ حزْم الفقيه .

---

* نُشِرَ في جريدة « الجزيرة» الأسبوعية التي تصدر في الرياض، العدد: ١٧٤ ، في ١٨ رمضان ١٩/١٣٨٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٧ .

وُلِدَ إبنُ حَزْم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حَزْم) في مدينة قُرْطُبة Cordoba ، عاصمة الأندلس ، في ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م وترعرع في بيت شرف وعلم . وكان أبوه أحمد ذا ثقافة عالية ومكانة رفيعة في الدولة . وقد أفاد إبن حَزْم من أبيـــه كثيراً ومن مجالسه التي تَعَرَّفَ فيها إلى عدد من رجال الدولة والعلماء والمفكرين .

وقد إشتغل إبن حَزْم بالسياسة فترة من الزمن . فَوَزَرَ في قُرْطُبَة لعبد الرحمن الخامس في سنة ٤١٤ هـ . لكنه بعـــد جولات في الحيـــاة السياسية طلقها وانصرف عن هذا الميدان ليعيش في ميدانه الطبيعي : مَيْدانِ العلم .

ويُعتَبَرُ إبن حَزْم من العلمـــاء الموسوعيين الذين انتجتهم الأندلس فكان متعدد النشاط الفكري وبرز في كل مـــا خاضه منها . وكان متعدد الحَيَوات : حياة سياسية وعلمية ودينيـــة وعاطفية . وقد فَهِم الإسلام على إنه جَمّاع كلها ، فَألَّفَ في التاريخ والأدب والأنساب والفلسفة والفقه والشريعة ، وكذلك في الحب وهو ما سأعْنَى به هنا .

أوْرَثَنا إبن حَزْم عِلْماً قَيِّماً وتُراثاً غنياً ، حيث بلغت مؤلفاته التي لم يصلنا أكثرها قرابة أربعمائة مجلد كما يروي ذلك إبنه الفضل أبو رافع . فخدم بذلك العلمَ بكل طاقاته ومـــا

أوتِيَ من عبقرية حتى نهاية عمره البالـــغ اثنتين وسبعين سنة . وتوفي في ٢٨ شعبان سنة ٤٥٦ هـ / ١٥ آب (أغسطس)١٠٦٣م. وبها طويت صفحات عالم من أكبر ما عَرَفَت الأندلس وأكثرهم علماً وأغزرهم إنتاجاً .

لا أريد أن أتحدث عن هذا الإنتـــاج الغزير العميق الذي خطه يَراع فقيه الأندلس ، وإنمـــا أريد أن أفْرِدَ بالحديث كتابه : (**طَوق الحمامة في الألْفَة والألاّف**) أي في الحب والمحبين . ولقد كتبه أثناء إقامته في مدينة شَاطِبَة Jativa في حوالي سنة ٤١٨ هـ [1] .

وهذا الجانب يبرز فيه إبن حَزْم أيضاً ، ويروي لنا في هذا الكتاب تَجاربَه وتَجارب غيره . فالكتاب قائم على الصدق والعمق والتَجْربَة . فهذا الجانب (الحب العفيف) الذي عاناه إبن حَزْم وتسجيلُه نظراته التحليلية في كتاب يجعل منـــه موجهاً في الحب الشريف ومداوياً لقلوب المحبين وأرواحهم من الطراز العالي . فيحدثنا بصراحة عن حبه ومعاناته فيه ، وأنه خرج من ذلك كله عَفيفاً طاهِرَ الثوب وكان له من دينـــه خير واق ومن قلبه المؤمن دليل مشرق ، فكان كما يقول الرافعي:

(١) راجع : عبد الكريم خليفة ، ابن حزم الأندلسي (حياته وأدبه) ، بيروت (١٩٦٨) ، ص ١٨٧ ؛ ابو زهرة ، ابن حزم ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ص ٤٧ ، ١٦٧ .

قلبي يُحِبُ وإنما أخلاقَه فيه ودينُهُ

ينقسم كتاب « **طوق الحمامة** » إلى ثلاثة أقسام من حيث الموضوع تقع كلها في ثلاثين باباً .

القسم الأول :

في أصول الحب وهو في عشرة أبواب هي : الكلام في ماهية الحب ، علاماته ، مَن أحب في النوم ، مَن أحب بالوصف ، مَن أحب مِن نظرة واحدة ، مَن لا يحب إلا مع المطاولة ، التعريض بالقول ، الإشارة بالعين ، المراسلة ، السفير .

القسم الثاني :

يتعلق بأعراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة وهو في إثني عشر باباً : باب طي السر ، الإذاعة والكشف ، الطاعة ، المخالفة ، المساعد مِن الاخوان ، الوصل ، القُنوع ، الوفاء ، الغَدْر ، مَن أحب صفة لم يُحب بعدها غيرها ما يخالفها ، الضَنى ، الموت .

القسم الثالث :

يتعلق بالآفات الداخلة على الحب ، وهي في ستة أبواب :

العاذل ، الرقيب ، الواشي ، الهَجْر ، البَيْن ، السَّلْو . وتختتمَ الكتابَ ببابين هما : باب عن الكلام في قبح المعصية وباب في فضل التعفف .

والذي يظهر أن الكتاب الذي لدينا (**طَوْق الحمامة**)[١] غير كامل . ولعله مختصر من الكتاب الأصلي الذي لا نعرف له وجوداً ولربما يخرج يوماً من طي الضياع .

يكشف لنا الكتاب عن قابلية إبن حَزْم الأدبية (شعراً ونثراً) كما يكشف عن عمق نظراته وجمال تحليلاته النفسية وصدقها . وهو يعرض بصراحة كثيراً مِن التجارب التي عاناها وتجارب غيره مع دراستها ما دامت هي واقعة ومتكررة ، وهي غير منكرة إذا كانت سليمة الإتجاه .

ولم يكن إبن حَزْم مَعْنِيّاً بالتأليف في الحب عِنَايَتَه بالعلوم الأخرى . وكان هذا الكتاب (**طَوْق الحمامة**) إستجابة لرجاء أحد أصدقاءه في أن يُصَنِّفَ له كتاباً أو رسالة في (صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه) ، الأمر الذي أتاح لصاحبنا فرصة يسجل فيها تجاربه وآراءه ؛ وكان صريحاً وصادقاً في عرض هذه التجارب . فيَرْوي – مثلاً – أنه

(١) طبع الكتاب أكثر من مرة ، منها طبعة القاهرة (١٩٥٩).

أَحبَّ في صبـاه جاريةً شقراءَ الشعر فلم يستحسن منذئذ «سوداء الشعر، ولو أنـه على الشمس أو على صورة الحسن نفسه»[1]. ثم كَلِفَ بجارية إسمها (نُعْم) فأحبها عظيم الحب. «وكانت امنية المتمني وغاية الحسن خَلْقاً وخُلُقاً ...»[2]. فتزوجها وهو دون العشرين من عمره لكنه لم يهنأ بحبـه، إذ إخْتَرمَتْها المَنِيَّةُ، فكان أشد ثكلاً بها من الأم بالوحيد. قال يصفها:

مُهَذَّبَةٌ بيضاءُ كالشمس إن بَدَتْ
وسائرُ رَبَّاتِ الحِجـال نُجُومُ

أَطارَ هواها القلبَ عن مُسْتَقَرِّه
فَبَعْدَ وُقوعٍ ظلَّ وهو يَحُومُ

وقال يَرْثيها:

كأني لم آنسْ بألفـاظكِ التي
على عُقَدِ الألبـاب هُنَّ نوافِثُ

ولم أتحكَّم في الأماني ... كأنني
لإفراط ما حَكَّمْتُ فيهن عابثُ

(١) طوق الحمامة، ص ٢٨.
(٢) طوق الحمامة، ص ٩١.

ويُعْتَبَرُ كتابُ «**طوق الحمامة**» نموذجاً عـالي العِفَّة في معاني الحب وأحواله العاطفية ومواصفاته القلبية. وصف كل ذلك بأسلوب الشاعر الرقيق والخبير الذي ذاق أحوال الهوى العذري وخاض غمارَه في مَدِّه وجَزْرِه وفَيْضِه وغَيْضِه. وكان خلاله ناسِكاً لا يُفارِقُـه نُسْكُه، يرفض كل صلة لا تقوم على التقوى (الأخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعضُهم لِبعْض عدو إلاَّ المتقين)[1]. والحب العفيف نبيل رفيع وهو معروف في الإسلام له تقاليده الطَّهُورة، وكان ذلك شائعاً عند مسلمي الأندلس، وهو حب يقوم على العِفَّة التي يعتبر «وجودهـا دليلاً قاطعاً على ما يكمن في نفوس الشعوب الإسلامية من مثالية عظيمة»[2].

وللإسلام تربيته الواقعية المتسقة مع طبيعة النفس الانسانية التي يهذبها ويرعاها بأسلوبه الفذ المُتَمَيِّز للإبقاء على هذا الحب الطاهر والمحافظة عليه عفيفاً نظيفاً، فلا يبيـع المسلم دينـه بحبه. وعلى هدي من هذه الروح حث الاسلام على اقتران المتآلفين بالزواج وعدم الوقوف أمام تكوين عش الألفة. وللإسلام فلسفته الخاصة التي ينفرد بها كعادته في كل شأن من الشؤون.

(١) القرآن الكريم، ٤٣/٦٧.
(٢) بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٢١٤.

لكن إبن حَزْم ما كاد يتنعم حلاوة هذا العش الندي حتى حُرِمَه ، الأمر الذي أجج عاطفته وأسالَ على لسانه الشعر الجميل ، العميق في صدقه ، المُشْرق في صورته وتصوره. ولربما يؤدي الحرمان أحياناً إلى الابداع. فكان (طَوْق الحمامة) كتاب الحب التقي وديوان الهوى النقي ، لعل مؤلفه أراد به أن يكون منهجاً إيمانياً تقياً يسير عليه المحبون .

وقد جعل آخِرَ أبوابه في (فضل التعفف) ليكون – كما يعلل ذلك في بداية الكتاب – « خاتمةَ إيرادنا وآخرَ كلامنا الحضُ على طاعة الله عز وجل والأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر وذلك مُفتَرَض على كل مؤمن » .

وجدير أن يتدبر الشباب المسلم معاني هذا الكتاب الرفيعة ويعتبر اتجاهه السليم .

وقد انتقل هذا الكتاب بشعره العاطفي وما فيه من تحليل لِخُلُق الحب الاسلامي إلى أوروبا فترجم إلى عدة لغات أوروبية وإلى الروسية أيضاً .

إبن حَزْم الأندلسيّ

الفقيه الأديب

كان عقلية فذّة ومِثالاً حياً للعقيدة التي عاش لها ، كما كان غزير الانتاج فبلغت مؤلفاته اربعمائة مجلد ضاع أكثرها . وهو الذي خرجت قرطبة ، قبل خمس سنوات ، لتحتفل به ابها كبيراً .

لا يستطيع باحث أن يوفّي إبن حَزْم حقه في مقالة. وليس هذا البحث القصير إلا تعريفاً مقتضباً بهذا الإمام الذي يستحق دراسة أو أطروحة مستقلة يُكرَّس لها الجهد الطويل .

كان صاحبنا عَلَماً من أعلام الإسلام الكبار في الغرب الإسلامي : أرض الأندلس « الفردوس الموجود » .

عصره

بعد إفتتاح الأندلس واستقرار المسلمين فيه قامت هناك على

أيديهم مدنية بلغت حضارة الإسلام فيهـا القمة . كما أن الحكام والخلفاء قد عاشوا حياتهم يخدمون الفكر والعلم في تلك البقاع. وكما كانت هذه الأرض الطيبة أصفى وأغنى منهل في العالم ورده طلاب المعرفة من كافة أقطـار الدنيا ، كانت أيضاً أكبر معبر لحضارة الإسلام إلى الغرب قاطبة .

ثم جاء إلى السلطة محمد بن أبي عامر الملقب بالحاجب المنصور (المتوفى ٣٩٢ هـ / ١٠٠٢ م)الذي كانت للأندلس في عصره قوة عسكرية كبيرة ، ولكن عهد هذا الرجل كان ذريعة للتدهور بسياسته الداخلية الفردية الكابتة المستبدة والخارجية المثيرة للعداوة والبغضاء .وبإنتهاء الدولة العامرية في ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م بدأت الفتنة الحالقة التي تمخضت عن قيام « دول الطوائف » ، حيث ضاعت وحدة الأندلس وقسمت إلى حوالي عشرين إمارة. وكان هذا الضياع نتيجة لفقدان الخط الخُلُقي المُسلم المُتَمَيِّز. ووضع المرابطون نهاية لعصر «دول الطوائف» في ٤٨٤هـ/١٠٩١م.

مولد ابن حزم ونشأته

عاش إبن حزم في فترة الطوائف التي تميزت بالإرتباك السياسي الذي يملأ الرأس حيرة والنفس حسرة . ولما لم يتيسر له النجاح السياسي إنصرف إلى العلوم فحقق الإنجازات الواسعة وأسهم في إثراء الفكر الإسلامي والفقهي منه على وجه الخصوص . ومع أن أحوال ذلك العصر كان لها أثرها في حياته الشخصية والسياسية

والعلمية فإنه نشأ من طراز آخر ؛ فقد كان إحدى ثمرات ذلك الغرس الذي وضعته أيدي الخلفاء قبل عصر الطوائف المضطرب.

ولد إبن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم) في مدينة قرطبة Cordoba قاعدة الأندلس ، فجر الأربعاء آخر رمضان عام ٣٨٤ هـ / تشرين الاول (اكتوبر) ٩٩٤م.واختلف في أصله ، فقيل : إنه فارسي الأصل ، وإذا كان هـذا الرأي أكثر تداولاً فلا يعني بالضرورة أكثر رجحاناً ؛ كما قيل : إنه من أصل نصراني إسباني ، لما أورده إبن حيّان المؤرخ الثبت في هذا الأمر [1] . ولعل هذه المسألة ما تزال بحاجة إلى مزيد من البحث [2] .

نشأ صاحبنا في بيت ثراء ووزارة كما هو بيت علم ومعرفة . فقد كان أبوه (أحمد) مثقفاً ثقافة عالية وله مؤلفات . وكان أحمد هذا من أصدقاء الحاجب المنصور الذي إستبد بحكم الأندلس. وبلغت صلة المنصور بأحمد أن اتخذه وزيراً ، وكان يستخلفه على المملكة أثناء غيابه [3] . وقد توفي عام ٤٠٢هـ/ ١٠١٢ م ،يوم كان عمر إبنه « علي إبن حزم » ثمانية عشر عاماً .

---

(١) ابن بَسّام ، الذخيرة ، ١ / ١ / ٤٢ .

(٢) راجع : الحاجري ، ابن حزم ، ص ١٧ ؛ ابو زهرة ، ابن حزم ، ص ٢٣ - ٢٦ ؛ خليفة ، ابن حزم الأندلسي ، ص ١١ - ١٦ .

(٣) ابن الأبّار ، إعتاب الكتّاب ، ص ١٩١ .

وكان الابن قد استفاد كثيراً ، عقلاً وعلماً وفضلاً ، من والده ومجالسه ، حيث تعرف فيها إلى العلماء والشيوخ .

شيوخه وتلاميذه

تلقى إبن حزم المعرفة على عدد من العلماء المعروفين في الاندلس ، تعرف إلى كثير منهم في مجالس أبيه . وكان أبوه نفسه أديباً وعالماً ، وهو الذي يقول : « إني لأعجب ممن يلحَن في مخاطبته ، أو يجيء بلفظة قلقة في مكاتبته ، لأنه ينبغي له إذا شك في شيء أن يتركه ويطلب غيره ، فالكلام أوسع من هذا » [1] . ولا شك أنه كان للجو العلمي ، في مجالس والده ، اثر في تكوينه . ومن **شيوخه** :

١) أبو علي الحسين بن علي الفاسي ، وكان هذا « من أهل العلم والفضل ، مع العقيدة الخالصة والنية الجميلة [2] » . كما كان « عاقلاً عالماً ، ممن تقدم في الصلاح والنسك الصحيح في الزهد في الدنيا والاجتهاد للآخرة » [3] . فنفع الله به إبن حزم كثيراً .

٢) أبو القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزْدي ، وكان

(١) الحُمَيْدي ، جذوة المُقتَبِس ص ١١٨ (رقم ٢١٤) .
(٢) الحميدي ، ص ١٨١ (رقم ٣٧٣) ؛ ابن حزم ، طَوْق الحمامة ، ص ٧٢ .
(٣) إبن حزم ، الطوق ، ص ١٢٦ .

عالماً عاملاً **معروفاً** [1] .

٣) أحمد بن محمد بن أحمد بن سعيد ، المعروف بـ « إبن الجسور الأموي » . وهو أول شيخ سمع منه إبن حزم قبل الأربعمائة [2] .

وهناك شيوخ آخرون تلقى عنهم إبن حزم في كل فن [3] .

ومن **تلاميذه** :

١) الحُمَيْدي صاحب كتاب « **جَذْوَة المُقْتَبِس** » . وهو الذي أدخل كتب إبن حزم إلى المشرق .

٢) صاعد الاندلسي (الطُلَيْطُلي) ، صاحب كتاب « **طبقات الأمم** » .

٣) أبو محمد بن العربي والد الفقيه المعروف : أبي بكر بن العربي .

حياته السياسية

بعد ذهاب وَحْدَة الاندلس وخلافته ظهرت عدة شخصيات

(١) إبن حزم ، الطوق ، ص ١١٧ ،
(٢) الحميدي ، ص ٩٩ - ١٠٠ (رقم ١٨١) ؛ الأفغاني ، ابن حزم الاندلسي ، ص ٣٤ - ٣٨ .
(٣) عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) ، ص ٢٥٤ - ٢٥٦ ؛ بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٢١٣ .

تدعو إلى لمّ الشعث وإعادة الوحدة والخلافة ، وكان علي بن حزم من هؤلاء . ولما توفي أبوه أحمد عام ٤٠٢هـ استقر في قرطبة فترة ، وهي مضطربة بالفتن. وفي ٤٠٤هـ رحل فقيهنا عن قرطبة الى المَرِيَّة Almeira ، فاعتقله صاحبها خَيْران العامري لشكه في نواياه . ولما أطلق سراحه بعد عدة أشهر ، ذهب إلى بَلَنْسِيَة Valencia فاستوزره فيها عبد الرحمن الرابع الملقب بـ « المُرْتَضى » ، ثم استقر في غَرْناطة Granada فترة . وفي ٤٠٨ هـ عاد أدراجه إلى قرطبة ، بعد أن أخفق في القيام بأي عمل إيجابي لاعادة الخلافة الأندلسية .

وجد إبن حزم أن الاحوال في قرطبة قد تغيرت خلال غيبته غير الطويلة عنها ، حيث كانت الاندلس تجتاز فترة من الفتنة عُرِفت في التاريخ بـ « عصر ملوك (أو دول) الطوائف» . رأى أن أصدقاءه بعضهم قد تشتت في البلاد ومات البعض الآخر. ولعل هذا أثار في نفسه الأسف والحرقة ، خاصة وأنه لم يُصب شيئاً من وراء إشتراكه في المعترك السياسي وركوبه أمواجه المتقلبة ؛ كل ذلك حوّل اهتمامه إلى تلقي العلوم . لكنه في سنة ٤١٤ هـ أعاد الكرة الى خوض الحياة السياسية حيث وَسَّد اليه الوزارة ، في قرطبة ، عبد الرحمن الخامس (بن هشام بن عبدالجبار بن عبد الرحمن الناصر) الملقب بـ« المُسْتَظْهِر »(١) .

(١) صاعد الاندلسي ، طبقات الأمم ، ص ٧٦ ؛ الافغاني ، ص ٢٧ ؛ دائرة المعارف الاسلامية (الترجمة العربية) ، ١ / ١٣٧ .

ولما تكررت خيبته في السياسة ، طلقها طلاقاً بائناً لينصرف بكليته الى الحياة العلميه : ميدانه الحقيقي(١) .

حياته العلمية

يُعتبر إبن حزم القرطبي – كما يسمى أحياناً – من أولئك الموسوعيين (كُتّاب الموسوعات) الذين عرفتهم الاندلس ، أرض الأمجاد . تعددت جوانب نشاطه الفكري وكان في كل منها يبدو وكأنه مُكَرِّس كل جهوده لذلك الحقل وحده ؛ كما تعددت جوانب حياته من سياسية وعلمية ودينية وعاطفية . وقد فَهِم الاسلام على أنه جَمَّاع لكلها وبأنصع الصور وأنقاها. ووصفه صاعد بأنه « كان أجمع أهل الاندلس قاطبة لعلوم الاسلام وأوسعهم معرفة ، مع توسُّعه في علم اللسان والبلاغة والشعر والسِّيَر والاخبار » (٢) . فألَّف في التاريخ والادب والفلسفة والفقه والشريعة وغيرها . ولكنه كان قبل كل شيء إماماً في الفقه وأُصولياً كبيراً عميق الغور كما كان واسع المعرفة بالأديان والعقائد الاخرى .

إن خوضه المعترك السياسي ، رغم إخفاقه فيه ، شَحَذ همته وأيقظ نفسه وساعده على التزود بإرادة حديدية قاوم بها كل التحديات . وعندما هجر الحياة السياسية عاد يتنقل في مدن

(١) عبد الواحد المراكشي ، المُعْجِب ، ص ٩٣ .
(٢) نقله المقرّي في نفح الطيب ، ٢ / ٢٨٣ .



تمثال من البُرُنْز BRONZE بالحجم الطبيعي لابن حزم القرطبي ، بلباس العلماء، من صنع المثّال الإسباني أماديو رويث اولموس Amadeo Ruiz Olmos

الاندلس، لا ليشترك هذه المرة في أي عمل سياسي لكن لِيَلْتقي بالعلماء وأهل المعرفة ، مُتفَقّهاً بعلمهم أو مجادلاً لهم ، حيث عُرِف بمهارته الجدلية العالية ، وكان قوياً وصريحاً في جدله « يَصُكُّ به مُعارِضَه صَكَّ الجَنْدَل »[1] .

ومن طريف مجادلاته أنه حينما ذهب إلى جزيرة مَيُورْقَة ناظره هناك الفيلسوف أبو الوليد الباجي . فيروي لنا المَقّري[2] أن الباجي قال لابن حزم : (« أنا أعظم منك همة في طلب العلم ، لانك طلبتَه وأنت مُعانٌ عليه تسهر بِمشْكاة الذهب ، وطلبتُه وأنا أسهر بقنديل بائتَ السوقِ ؛ فقال ابن حزم : هذا الكلام عليك لا لك ، لأنك إنما طلبتَ العلم وأنت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي ، وأنا طلبتُه في حين ما تعلمُه وما ذكرتَه ، فلم أرْجُ به إلا عُلوّ القَدْر العلمي في الدنيا والآخرة » ، فأفحمه) .

ولم تقتصر مجادلاته على العلماء المسلمين بل تعدتهم الى علماء الأديان الاخرى . ومجادلته ورده على يوسف بن اسماعيل بن النِغْريلَة (اليهودي) ، وزير باديس صاحب غَرناطة ،

---

(١) ابن بسام (نقلاً عن ابن حَيّان) ، الذخيرة ، ١ / ١ / ١٤١ .
« و الجندل : الصخر العظيم ؛ ويقال في المثل عن متناظرين شديدين : (جندلتان اصطكتا) ».
(٢) نفح الطيب ، ٢ / ٢٨٢ .

وقد أقيم في قرطبة عند المكان المسمى الآن باب إشبيلية Puerta de Sevilla (قديماً باب العطارين) ، حيث الحي الذي كان يسكنه ابن حزم ، وكان يمر من هـذا المكان حين يذهب الى مسجد قرطبة الجامـــع .

أزيح الستار عن هذا التمثال خلال احتفال ضخم كبير اشترك فيه متصرف قرطبة ورجال الدولة والعلم في اسبانيا مع عدد من سفراء الدول العربيـــة والاسلاميـــة فيها ، ومع الآلاف من القرطبيين وغيرهم ؛ وذلك صباح ١٢ مايس (مايو) ١٩٦٣ ، وكتب على القـاعدة الحجرية ، التي يقوم عليهـا التمثال ، بالعربية (بالخط الكوفي) العبارة التالية :« بمناسبة الذكرى المئوية التاسعة لوفاة ابي محمد علي بن حزم القرطبي ، تقدم مدينة قرطبة أعظم آيات التقدير لمن تعتبره عَلماً من أعلام ثقافتها . »

معروفة (١) .

وكان في كل ذلك ذكيٌّ الفؤاد قويُّ الحُجَّة بارعَ الدليل حاضر البديهة واسع الأفق حسَنَ التصرف كثير المعرفة .

ولقد وُصِفَ بأنه « كالبحر لا تَكْنُفُ غَوارِبُـه ، ولا يَرْوَى شَارِبُه ،وكالبدر لا تُجْمَدُ دلائلُه ،ولا يُمْكِنُ نائلُه (٢) . »

وكان ابن حزم يتنقل في مدن الاندلس كشَاطِبَة Jativa والمريَّة وبَلَنْسِية وغيرها. وأقام فترة في شَاطِبَة (حيث صَنَّفَ كتابـه « طَوْق الحمامة ») ، وكانت خاضعة للصَّقْلَبِيَيْن العامِريَيْن: مبارك ومظفر اللذين كانت تربطه بهما عَلاقات حسنه (٣).

واستقر بعد الترحال في بادية لَبْلَة Niebla فقصده الطلبة والمريدون وقضى بقية حياته بين التدريس والتأليف حتى واتته المنية سنة ٤٥٦ هـ .

مؤلفاته

كان إبن حزم من أكثر خلق الله إنتاجاً ، إذ بلغت تآليفه

---

(١) راجــع : رسالة ابن حزم : « الرد على ابن النغريلة اليهودي » ، تحقيق إحسان عباس ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

(٢) ابن سعيد المغربي ، المُغْرِب في حُلَى المَغْرِب ، ١/٣٥٤ .

(٣) خليفة ، ابن حزم الأندلسي ، ص ٥٩ ؛ أبو زهرة ، ص ١٦٧ .

حوالي أربعمائة مجلد ، تشتمل على ثمانين ألف ورقة تقريباً ، كما يَروي ذلك إبنُه الفضل المعروف بـ « أبي رافع » (١) ، ولكن فقد أكثرها . ويذكر ابن حَيّان (٢) أنه : « كَمُل من مُصنّفاته في فنون العلوم وِقْرُ بعير » .

والذي وصلنا من مؤلفاته قد يربو على الثلاثين مؤلفاً أكثرها مطبوع(٣) ؛ كلها تشهد بالذكاء والعمق والدقة والأمانة العلمية التي إتصف بها إبن حزم . ومنها على سبيل المثال :

١ – « **الفَصْل في المِلَل والأهواء والنِّحَل** »، أول كتاب في موضوعه وهو تاريخ للأديان والعقائد والمذاهب ونقدها ومناقشتها ، فهو دراسة مقارنة للعقائد ، وهو مطبوع .

٢ – « **إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد** » ، مطبوع .

٣ – « **جَمْهَرَة أنساب العرب** »، ويُعتبر من أحسن وأدق ما كُتب في هذا الموضوع ، مطبوع .

---

(١) المَقّري ، نفح الطيب ، ٢/٢٨٨ .

(٢) ابن بسام ، الذخيرة ، ١/١/١٤١ . الوقر : الحمل الثقيل .

(٣) راجع : خليفة ، ابن حزم ، ص ١٢٨ – ١٣٤ .

٤ – « **المُحَلّى بالآثار في شرح المُجَلّى بالاختصار** » ، ويقع في أحد عشر جزءاً ، مطبوع .

٥ – « **جوامع السيرة** » ، مطبوع .

٦ – « **مسائل أصول الفقه** » ، مطبوع .

٧ – « **طوق الحمامة في الأُلْفَة والأُلّاف** » ، مطبوع ، وهو نظرات دقيقة وتحليل عميق في فلسفة الحب والمحبين .

٨ – « **الأخلاق والسِّيَر في مداواة النفوس** » ، مطبوع ومترجم الى الفرنسية .

٩ – « **الاحكام في أصول الأحكام** » ، مطبوع في ثمانية أجزاء .

١٠ – « **حِجّة الوَداع** » ، مطبوع .

وله عديد من الرسائل نُشرت مفردة أو في مجاميع ، ولا يزال بعض كتبه ورسائله غير منشور .

مذهبه في الفقه

كان إبن حزم مُوزّعاً بين السياسة والأدب حتى سن السادسة والعشرين ، ثم تحول الى دراسة العلوم الشرعية . ويُروى في سبب هذا التحول أنه كان مرة في مسجد فظهر جهله بفروض

الصلاة ، الأمر الذي دفعه الى دراسة الفقـه ، ثم سار في تلقي العلوم الإسلامية بتوسع(١) .

كان في بداية إتجاهه هذا مالكيا ثم شافعيا (٢) لكنه مـا لبث أن إستحسن المذهب الظاهري فتحول إليه ، وبقي كذلك حتى وفاته(٣) . ومؤسس هـذا المذهب أبو سليمان داود بن علي الأصبهاني(٤) المعروف بالظاهري . وأول ظـاهري في الأندلس دافع عن مذهبه ودعى إليه بحماس هو منذر بن سعيد البَلوطي (المتوفى سنة ٣٥٥ هـ / ٩٦٦ م) .

وَيعتمد المذهب الظاهري على ظاهر الكتاب والسنة وكذلك إجماع الصحابة ، وهو ينكر القياس ويبطله (٥) ؛ وهـذا يفتح باب الإجتهاد — بشروطه — وعلى مصراعيه (٦) .وكان إبن حزم

(١) بالنثيا ، ص ٢١٥ ؛ الأفغاني ، ٣٢ - ٣٤ .

(٢) أبو زهرة ، ص ٣٦ ؛ خليفة ، ص ١١٤ .

(٣) المَقَّري ، نفح الطيب ، ٢/٢٨٣ . سار أهل الأندلس أولاً على مذهب الأوزاعي ثم تحولوا الى المالكي (النفح ، ٤/٢١٤) ؛ كما كان بعضهم شافعياً وبعض آخر على المذهب الظاهري .

(٤) الأفغاني ، ص ٦١ .

(٥) أبو زهرة ، ص ٢٦١ ، ٢٧٥ ، ٤١٢ .

(٦) أبو زهرة ، ص ٢٧٥ وبعدها .

إمام هذا المذهب في الأندلس بل أصبح مستقل التفكير غـير تابـع فيه لداود الأصبهاني ، وقد دافع عنه وحمل رايته ، وهو الذي يقول :

ألم تَرَ أني ظـاهريٌ وأنني
على ما أرى حتى يَقومَ دليلُ

ولقد تَوَسَّع إبن حزم وتعمق في هذا المذهب وأضاف إليه كثيراً من الأصول (١) ، حتى غدت له طريقته الخاصة وأصبحت هذه الطريقة — أو قل هذا المذهب — جديداً . وكان من أتباعه بالأندلس جماعة كبيرة عُرفت بـ « الحَزْمِيَّة » (٢) ، ومنهـا صاعد الأندلسي (تلميذه) ؛ ومال إليه محمد بن تومرت مهدي الموحدين . ولكن بمرور الزمن قل أتباعه ثم انعدموا .

أدبه وبيانه

كان أدبه — وخاصة نثره — في مستوى عال ، وذلك واضح في كتبه كافة وعلى الخصوص كتابه « طَوْق الحمامة » الذي يظهر فيه إبن حزم شاعراً ناثراً من الطبقة العالية ، كما يظهر ذلك من

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، ١/١/١٤١ .

(٢) الزركلي ، الأعلام ، ٥/٥٩ .

رسالاته المتعددة التي تتسم بالأدب الرفيع وتدل – مع غيرها – على قابلية فذة في هذا الميدان . ومعروف أن إبن حزم يقول الشعر على البديهة مرتجلا . وقد ذكر ذلك تلميذه (الحُمَيْدي) في **جَذْوَته** قائلا : « وكان له في الآداب والشعر نَفَسٌ واسع وباع طويل ، وما رأيتُ مَن يقول الشعر على البديهة أسرع منه وشعره كثير ، وقد جمعناه على حروف المعجم (١) » .

ونجد أمثلة كثيرة من شعره متفرقة في كتبه ورسائله، وليس ما وصلنا منه هو كل ما قاله من الشعر . ومن القصائد التي قالها إرتجالاً دفاعاً عن الإسلام قصيدة تعدادها ستة وثلاثون ومئة بيت (٢) ، مبدؤها :

مِن المُحْتَمي لله ربِّ العوالمِ
ودينِ رسول الله مِن آل هاشمِ

محمدٍ الهادي الى الناس بالتُّقَى
وبالرشدِ والإسلام أفضل قادم

عليـه من الله السلامُ مُرَدَّداً
الى أنْ يوافي البعثَ كلُّ العوالم

---

(١) ص ٢٩١ .

(٢) خليفة ، ص ٢٥١ .

ومنها :

ملوك جرى بالنصر طائرُ سعدهم
فأهلاً بمـاضٍ منهمُ وبقـادم

محلتهم في مسجد القدس أو لدى
منازل بغداد محـل الأكارم

فأهلاً وسهلاً ثم نعمى ومرحبا
بهم خيـار سالفين أقـادم

هم نصروا الإسلام نصراً مؤزرا
وهم فتحوا البلدان فتح المراغم

رويداً فوعد الله بالصدق وارد
بتجريع أهل الكفر طعم العلاقم

وصدق رسالات الذي جاء بالهدى
محمد الآتي بدفع المظـالم

وأذعنت الأملاك طوعاً لدينه
ببرهان صدق ظاهر في المواسم

فقـير وحيـد لم تُعنه عشيرة
ولا دفعوا عنـه شتيمة شاتم

ولا عنده مال عتيد لناصر
ولا دفع مرهوب ولا لمسالم

ولا وعد الأنصار دنيا تخصهم
بلى ، كان معصوماً لأعظم عاصم

وكم آية أبدى النبي محمد
وكم علم أبداه للشرك حاطم

تساوى جميعُ الناس في نصر حقه
فللكل من إعظامه حال خادم

فعرب وأُحْبُوش وترك وبربر
وكرد بهم قد فاز قدح المساهم

وجاء بما تقضي العقول بصدقه
ولا كدعاو غير ذات قوائم

عليه سلام الله ما ذر شارق
يعاقبه ظلماء أسحم غائم

ولإبن حزم الفقيه والأديب جانب آخر أدلى فيه بدلوه هو الحب العفيف الذي لا يقوم إلا على الشرف والعفة ولا يرضى

بالخلوة . فيحدثنا في كتابه « **طوق الحمامة** » عن حبه ومعاناته في فترة شبابه وكيف حافظ على عفته خلال ذلك كله ولم يكن له من واق غيرُ دينه [١] . فيروي لنا بعض القصص منها قصة « نُعْم » التي « كانت أمنية المُتَمَنِّي وغاية الحسن خَلقاً وخُلُقاً وموافِقة لي وكنتُ أبا عُذْرِها ، وكنا قد تكافأنا المودة » [٢] .

تعلقه بوطنه

أحب إبن حزم وطنه « الأندلس» حباً جماً وتعلّق به أشد تعلق وفاخر بأنه موطن للإسلام تجلت فيه حضارته . وكان يتصدى للرد على كل مَن إنتقص منه ، بأسلوب علمي نزيه يقوم على الحجة المقنعة . ورسالته في ذكر « **فضل الأندلس وذكر رجالها** » معروفة [٣] . وفيها يدافع عن أهل الأندلس وبين سبقهم في العلم والفضل . وخلال ذلك يستعمل عبارات تدل على الشعور بالغيرة الشديدة والإرتباط الوثيق ، تعابير مثل :

---

(١) راجع المقال السابق .
(٢) طوق الحمامة ، ص ٩١ .
(٣) أوردها المَقَّري ، نفح الطيب ، ٤/١٥١ – ١٧٠ .

بلدنا ، أندلسنا ، إقليمنا .

وإذا كان إبن حزم قد تضايق من عدم تقدير بعض مواطنيه له وممن آذوه وأنكروا فضله وأنه ربما عُرف قدره لو كان في بلد آخر ، في مثل قوله :

أنا الشمس في جو العلوم منيرةٌ
ولكنّ عيبي أنّ مَطْلَعي الغربُ

ولو أنني من جانب الشرق طالعٌ
لجدّ على ما ضاع من ذكري النهب

ولي نحو أكناف العراق صبابةٌ
ولا غَرْوَ أنْ يستوحش الكَلِفُ الصب

فإن يُنْزِلِ الرحمن رَحْليَ بينهم
فحينئذٍ يبدو التأسف والكرب

فكم قائلٍ أغفلتُه وهو حاضر
وأطلب ما عنه تَجيء به الكُتُبُ

هنالك يُدْرَى أنّ للبعد قصةً
وأنّ كسادَ العلم آفتُه القرب

لكنه على الرغم من ذلك — وهذا دليل تعلقه بأندلسه —

قد ظل يعتز بأنه من أرض الأندلس ، وبكل صراحة ، يقول :

ويا جوهر الصين سُحْقاً فقد
غَنِيتُ بياقوتةِ الأندلس

وفاته

توفي إبن حزم (وقد بلغ من العمر إثنتين وسبعين سنة) في قرية « مُنْتِ لِيشَمْ Casa Montija » من كورة لَبْلَة Niebla ، في ٢٨ شعبان سنة ٤٥٦ هـ / ١٥ آب (أغسطس) ١٠٦٣م[١]. قضاها حياة حافلة بالحركة والنشاط والإنتاج العلمي الغزير . وكان من أكثر خلق الله تأليفاً ، وعاش خلالها صادق الإيمان صافي العقيدة مستقيم السيرة مهتدياً بتعاليم القرآن الكريم سائراً تحت ظلاله مُحافظاً عليه في السر والعلانية مقتدياً بسيرة الرسول الأمين ﷺ ، « وكان يؤمن بأن سلامة العقيدة والشرف فوق الحياة نفسها » [٢] .

ولا شك في أن كثيراً من آراء وبعضَ كتب هذا الإمام الفذ قد انتقلت منذ زمن مبكر الى الغرب ومنها أفاد كبير

(١) عبد الواحد المُراكشي ، المُعْجب ، ص ٩٦ .

(٢) بالنثيا ، ص ٢١٦ .

الفائدة [1] . كما أن إبن رشد الحفيد (وأثره في الفكر الأوربي معروف) كان متأثراً بإبن حزم .

رحمك الله يا أبا محمد ، فقد كنت نسيجَ وَحدِكَ ، كنتَ إحدى الزهرات التي انشقت عنها أرض البطولة أرض الأندلس المجيدة .

(١) الكتاني ، مجلة (البينة) ، ٢/٧٧ - ٨٦ .

النكبات طريق النصر *

- ١ -

يكادُ لا يخلو تاريخُ أمّةٍ من الأمم، في أيّ زمانٍ ومكان، من نَكَسات وهزائم أصابَتْها خلالَ حياتها . ولا يُقلل من مكانة الأمّة الحيّة هزيمة لحِقَتْها أو خَسارةٌ حلّتْ بها في معركةٍ من معاركها ، حربيةً كانت أو غيرَ حربية .

* هو مقال مسلسل « بعد فضيحة حزيران (يونيو) ١٩٦٧ »، نشرت هذه الحلقة (الأولى) في جريدة « المنار » البغدادية ، العدد : ٣٧٧٧/٤٠، ٢٧ ربيع الأول ١٣٨٧هـ/٥ تموز (يوليو) ١٩٦٧ .

نماذج بطولية من تاريخنا المجيد

إنَّ الأمَّةَ الحية تعمل للقيام تِلْوَ كُلِّ سَقْطَةٍ لتستعد ثانية وثالثة للمسير في موكب الانسان ، للمشاركة في البنـــاء الحضاري وتعمير الأرض بالخير والصلاح لصالحها وصالح الآخرين . والأمة الأصيلة هي التي تعرف وتجيد الاستفادة من المحن ، التي تشير الى جوانب النقص لِتُتَمِّمَها ، والى أسباب الهزيمة فتُزيلَها. وهذا هو المعنى الذي دَرَجْنا عليه وشاهدنا له الأمثلة الكثيرة .

إن المحن تجوهر وتنقي الأمَّةَ العزيزة وتبني عزائمها من جديد لتخوض كل معركة قادمة بهمة أعلى وعقلية أوعى .

تاريخ بطولي طويل

تاريخنا الإسلامي الطويل مليء بالانتصارات الحاسمة البارعة التي حققها المسلمون ، بروعة وتفوق ، في كافة ميادين الحيـــاة الإنسانية والعسكرية سواء بسواء .

وعلى الرَّغم من ذلك فإن هذا التاريخ ليس خُلُوّاً من أية نَكْسَة ، بل إن بعض هذه الانتكاسات حدثت يوم كان المسلمون في أوج قوتهم . وما خبر معركتي أُحُد وحُنَيْن عنا ببعيد. لكن المهم أن المسلمين لم يستسلموا للهزيمة بل وعوا أسبابها فزادهم ذلك قوة وبصيرة وانطلاقاً جديداً لإحراز الانتصارات المتتالية ، ولذلك فمثل هذه الانتكاسات كانت مؤقتة .

ولدينا معارك حربية كثيرة كانت مَدّاً قوياً بعد جزر شديد وفي بيت المَقْدِس بالذات ! ألم يحتله الصليبيون قُرابة تسعين عاماً وحَرَّرَه بعد ذلك بطلُ الإسلام صلاحُ الدين الأيوبي ؟

افريقيا والأنْدَلُس

وأروي هنا عدة أمثلة من تاريخنا الإسلامي في الغرب ، وفي الأندلس بصورة خاصة ، بعضها معروف ومشهور .

تولى عُقْبة بن نافع الفِهْري —للمرة الثانية— حكم إفريقيا[1] والمغرب في سنة ٦٢ هـ/ ٦٨٢ م ، واتخذ مدينـــة القَيْرَوان عاصمة له . وقاد عُقْبَةَ عمليات الفُتوح الإسلامية الخَيِّرة حتى وصـــل إلى طَنْجَةَ على ساحل المحيط الأطلسي . وفي طريق عودته إلى تُونُس قام كُسَيْلَة (أو كَسِيلَة) بن لَمْزَم ،

(١) « إفريقيا » تعني في اصطلاح المؤرخين المسلمين القُطْرَ التونسي حالياً ، ربما مضافاً إليها بعض المناطق المجاورة .

أحد زعماء البربَر البرَانس ، بثورة كبيرة وقاتله عُقبَة ، وكان في خمسة آلاف من الفرسان، لكن كُسَيْلَة انتصر على المسلمين، رغم استبسالهم . وكان الإستشهاد نصيب أكثرهم حتى عُقبَة نفسه . وقويت شوكة كُسَيْلَة واحتل مدينة القَيْرَوان ، وغدا أميراً على تونس والمغرب ، واضطر زهير بن قيس البَكوي (خلَف عُقبَة) إلى الإنسحاب من بَرْقَة في ليبيا ، وكان كُسَيْلَة قد زاد قوة وأتباعاً . وبدأ المسلمون الإستعداد لملاقاة كُسَيْلَة بقوته المتزايدة ، ودارت معارك مُروّعة بين الطرفين ، نجد تفصيلاتها في كتب التاريخ (١) ، انتهت بقتل كُسَيْلَة وانتصار المسلمين وعادت إفريقيا والمغرب إلى دائرة الإسلام ، وغدا أهل الشمال الإفريقي من البربر وغيرهم من الناس المخلصين للاسلام وعقيدته بل ومن أحرصهم على نشره والجهاد في سبيله، وحملة طارق بن زياد لفتح الأندلس خيرُ شاهد ومبين.

معركة بلاط الشهداء

وفي الأندلس (إسبانيا والبرتغال اليوم) بعد أن إفتتح السَّمْح بن مالك الخوْلاني، والي الأندلس، سبتمانية Septimania في جنوب فرنسا وأقام بها حكومة إسلامية (٢) حدثت معركة

(١) ابن عِذاري ، البيان المُغْرِب ، ٢٨/١ – ٣٣ ، شيت خطاب ، قادة فتح المغرب العربي ، ١١١/١ .

(٢) عِنان ، دولة الاسلام في الأندلس، ٨٠/١ .

مع أودو Eudes حاكم (دوق) أكيتانيا Duke of Acquitaine وقُتِلَت زهْرةُ الجيش ، كان السَّمْحُ بينهم ، سنة ١٠٢ هـ/ ٧٢١ م . لكن هذا لم يُثْنِ المسلمين عن التقدم بفتوحاتهم إلى داخل الأراضي الفرنسية بعد أن لَمّوا شَعْثَهم وأعادوا بناء صفوفهم .

والآن إلى ذكر إحدى المعارك المشهورة والتي اعتُبِرت من المعارك الهامة في التاريخ ، تلك هي معركة « **بلاط الشهداء** » التي حدثت في فرنسا عند فرعين لنهر اللوار Loire قرب مدينة تور Tours حوالي ٧٠ كم جنوب باريس . وسُمِّيَت المعركة بهذا الاسم « **بَلاط الشهداء** » لكثرة ما سقط فيها من الشهداء . كان المسلمون بقيادة والي الأندلس عبد الرحمن الغافقي المعروف ببطولته الفائقة . وكان الجيش الفِرَنْجي ، وقد تَجَمَّعَ من عدة ممالك أوروبية ، بقيادة شارل مارتل Charles Martel المعروف بـ « شارل المِطْرَقة » ، يفوق جيش المسلمين عَدَداً وربما عُدّة أيضاً ، ودارت المعركة حامية هُزِمَ فيها المسلمون وقُتِل فيها كثيرٌ فكان من بينهم الغافقي القائد .

الهزيمة والنصر

ولكن هذه الهزيمة لم تزعزع العزائم المؤمنة بربها وعقيدتها . ولمّا أعاد المسلمون جمع صفوفهم أعادوا الكَرّة أكثر من مرة وباتوا يسيطرون – لفترة – على عدة مناطق في الجنوب الفرنسي .

وفي بعض الأحيـــان إمتد نشاط الأندلسيين حتى سويسرا وإيطاليا .

وإذا كان المسلمون في الأندلس لم يستطيعوا الكرة مباشرة بعد بَلاط الشهداء ، وبصورة أقوى ، فلم يكن سبب ذلك يكمن في ذهاب الإيمان والقدرة وانهيار العزيمة بعد الهزيمـة بل كانت هناك أسباب أخرى تتعلق بالظروف الجديـــدة التي حلَّت بالمجتمع الإسلامي في الأندلس ، كما إنَّ هزيمتهم نفسَها في المعركة كانت تعود – لحد كبير – إلى بعض الأسباب المتعلقة بالبنـــاء العسكري وربما إلى الظروف الطبيعية للأرض التي كانوا يحاربون فيها في تلك المعركة .

النكبات طريق النصر *

٢

تمنح العقيدة معتنقيها من القوة بقدر ما تمتلك منها . ولا بد لهذه الحياه من عقيدة قوية تطهرها من كل رجس وتُعمّرها بالحق والعدل والخير .

ولا عقيدة أقوى من الاسلام وأملك منه لهذه الصفات فلا يمكن البتة أن تقعد بأمة نكبة أو تفت في عضدها نكسة ما دامت مؤمنة بكل كيانها بهذه العقيده التي منها استمدت وجودها وبنورها اهتدت .

* الحلقة الثانية ، نُشرت في جريدة « المنـــار » البغدادية ، العدد : ٣٨٠٨/٧٣ ، ٣٠ ربيع الثاني ٧/١٣٨٧ آب (اغسطس) ١٩٦٧ .

عندما هاجم القراصنة شواطيء الأندلس

إن الانتصارات والإنجازات الكثيرة التي حققها المسلمون – في كل الميادين– كانت ثمرة إيمانهم بالمُثُل الإسلامية الرفيعة، ولا تُشير فترات الهبوط –بأنواعه ومُدَده– إلاّ إلى الانحراف المتجانس عن هذه المثل .

والنَكَسات ، التي ذَكَرْتُ في الحلقة السابقة طرفاً منها، كانت أولاً نَكْسَة في النفس أو واقع المجتمع. وكل الأمثلة التي أوردتُها كانت أسبابُها طارئة أدَّتْ إلى إنكسار إستطاع المسلمون ملافاة عوامله بسهولة .

معركة بَلاط الشهداء

ومن هذه الأمثلة ما حدث في المجتمع في الاندلس تِلْوَ معركة « بَلاط الشهداء » التي قد لا تخلو هي نفسها من هذه العوامل . لقد دارت رحى هذه المعركة – التي مرّ ذكرها – مع جيوش الفِرَنْجَة التي كانت تفوق الجيش الاسلامي كثرة

وُعدّة . فإن النزاعات الداخلية في الاندلس أثّرت في موجة التقدم الاسلامي داخل أوروبا . ولا شك إنه لو قُدِّر لموجة الفتح الإسلامي الإستمرار في هذه المعركة وبعدها لتغير تاريخ الإسلام في تلك البقاع .

قَراصِنَة البحار

ولعله من المناسب الآن أن نقفز معاً – من تاريخ هذه المعركة – قفزة زمنية نطوي فيها قرناً من الأعوام أو يزيد . وذلك يوم كان عبد الرحمن الأوسط (الثاني) أميراً للأندلس لنشهد لوناً آخر من هذه الأحداث . إعتداء مفاجيء خاطف أخذت فيه الأندلس على غِرّة . ففي بداية ذي الحِجّة عام ٢٢٩ هـ / أواسط آب (اغسطس) ٨٤٤ م هاجمت جماعة مِن قَراصِنَة البحار – ولأول مرة – الشواطيءَ الغربية . قام هؤلاء القُرصان من النورمان الدنماركيين (Vikings (Norsemen)) بهجومهم على الأندلس ، بعدما سمعوا بخيراته وثرواته ، في ثمانين مَركباً من مراكبهم الطويلة الرفيعة (المُدَبَّبَة) خفيفة الحركة « كأنما مَلأتْ البحرَ طيراً جُوْناً ؛ كما مَلأت القلوبَ شَجْواً وشَجُونا . »[١] كما وصفها إبن عِذاري المُراكشي في **البيان المُغرب**[٢] . وكانت لِشْبُونة (Lisbon (Lisboa)) عاصمة

(١) جُوْن (مفردها : جَوْن) : السوداء المُشْرَبة بالحمرة .

(٢) ٨٧/٢ .

البرتغال حالياً) أولَ مدينة أندلسية تَشهَد هُجومَ النهب والخراب النورماني ، واستمروا منحدرين مع الشاطيء حتى إشبيلِيَة (Seville (Sevilla كما هاجموا مدناً أخرى وقُتِلَ من المسلمين كثير .

الأندلس تستيقظ

ولكن الأندلس أفاقت من الضربة العنيفة المفاجئة ، غير المتكافئة ، حيث كان النورمان متفوقين في القوة البحرية عُدةً ومهارة واستطاعت الأندلس أن تَرُدَ هؤلاء، فاستُدعِيَت كل القابليات ونَفرَ المسلمون خِفافاً وثِقالاً . ودارت بعد ذلك معارك عديدة انتهت بانتصار الأندلس.وكان من جملة الإجراءات إستدعاءُ قوة من شمال الأندلس مُدرَّبَةٍ على حرب العصابات والضَربَات الخفيفة السريعة ، الأسلوب الاكثر ملائمة لحرب هؤلاء الغزاة. فاستدعى الأميرُ عبدُ الرحمن الأوسط موسى ابن موسى القَسَوي الذي حضر مع قوة ضاربة إلى العاصمة قرطبة ؛ وعقد ، مع القادة الآخرين ، مؤتمراً عسكرياً دُرِسَت فيه الاحوال والظروف والإمكانات فوضعت الخطة المحكمة ، بالتشاور في ضوء كل ذلك .

كمين في كنيسة

ولما كان النورمان يخرجون كل يوم إلى بَسائط إشبيلِيَة في

جماعات هجومية فإن موسى سار بقواته ليلاً مختفياً قريباً من تلك المناطق ووضع كميناً في كنيسةِ إحدى القرى القريبة من إشبيلِيَة .وما أنْ انبلج الصباح حتى خرج الغزاة إلى أهدافهم، فأشار مَن في المرصد (الكمين) إلى موسى بقدومهم وانتظر موسى حتى مرّت قوات العدو وبعدت قليلاً ؛ فحمل المسلمون عليهم وقطعوا ما بينهم وبين المدينة وحُوصروا من كل مكان وأبيدت القوة النورمانية (١) . كما أُرْسِلت قوات أندلسية في نفس الوقت لحماية إشبيلِيَة التي كان العدو قد احتلها . ولما رأى هؤلاء أنه قد أُحيط بهم من كل جانب هربوا إلى مراكبهم وطلبوا إلى المسلمين الكف عنهم . وهكذا قُتِلَ كثير منهم كما أحرق مِن سفنهم العديد ورُدُّوا خاسرين .

لكن هذه الهجومات لم تنته بهذا الشكل فقط بل إنها لفتت أنظار السلطة الاندلسية إلى ناحيتين مهمتين استفادوهما من هذه المعركة .

الأولى : تحصين المدن الساحلية لدرء أي هجوم مفاجيء مثل هذا أو غيره .

الثانية : إنشاء قوة بحرية أندلسية أكثر كفاية،مع تطوير فن بناء سفن الأسطول الأندلسي .

---

(١) ابن القوطية ، تاريخ إفتتاح الأندلس ، ص ٨٥ .

ولذلك فحينما أعـــاد النورمان الكرة على الاندلس في سنة ٢٤٥هـ/ ٨٥٩ م بعد خمس عشرة سنة من هجومهم الأول السابق، لم يلاقوا غير الدمار والهـــلاك . فهكذا كانت النكبة مفيدة ودرساً أشار إلى موطن النقص ومواضع الخطر التي أُكمِلَتْ وأُخِذَتْ لها كل الإستعدادات للدفاع عن البلاد وحفظ كيان الأمة وصيانة كرامتها .

بلغت الاندلس أيام خِلافتها في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي قِمَّةَ الحضارة في العالم. وفي أيام الخليفة العظيم عبدالرحمن الثالث (الناصر لدين الله) غدت الأندلس مَقْصِداً ، إليها يفد طلاب العلم مثلما يفد السفراء والملوك من كل الأمم طالبين صداقتها حريصين على عقد الصِلات مع الاندلس مُقدِّمين فروض الرضا أو الخضوع . **فكانت دولة الاسلام هنـــاك أول قوة حضارية وسياسية في العالم .**

كانت في الشمال الاسباني ثلاث دول مسيحية (ليون Leon) وقَشْتالة (Castilla) Castile ونافار (Navarre) Navarre سلكت الأندلس معها سياسة التعايش السلمي رغم التفاوت في القوة بين دولة الاندلس وهذه الدول ، حتى أن حكام دول الشمال الإسباني كانوا يُحَكِّمون السلطـــات الاندلسية في خصوماتهم ، ورغم ذلك فإن السلطات الإسلامية في الاندلس لم تستغل ضَعْفَ هذه الدول بل رَغِبَت في عيش سلمي دائم .

حلف العدوان

وعلى حين غِرَّة وُلِدَ حلف للعدوان على الاندلس من الدول الإسبانية في الشمال ، بزعامة راميرو الثاني Ramiro II ملك ليون ، محور هذا التحالف العدواني . فجهز الخليفة عبدالرحمن الناصر جيشاً ضخماً وسار به إلى شمال الاندلس للقاء المتحالفين وتأديبهم . وكان أحد حكام الولايات الشمالية الاندلسية الخائن أُمَيَّة بن إسحاق قد لجأ إلى راميرو الثاني ووضع نفسه تحت تصرفه، حتى عَلَتْ مكانة أمية عنده، فقرَّبه واستوزره [١]. وكان أمية يقدم لراميرو في هذه المعركة خبرته العسكرية ويدله على عورات إخوانه المسلمين ويقاتل معه ضدهم . وتقدم الناصر بجيشه ، الذي قدرته بعض الروايات قرابة مئة ألف مقاتل . ولوجود بعض العوامل داخل الجيش الاندلسي التي كانت تَفُتّ في قواه خسر الناصر هذه المعركة وتراجع المسلمون في اليوم الثالث من المعركة (بعد أن بدا لهم النصر) وتساقطوا في خندق عميق ، كان قريبـــاً من ميدان المعركة ، وسُمِّيَتْ المعركة « معركة الخندق ». وقتل منهم آلاف كثيرة أوصلها البعض إلى أربعين ألفـــاً أو يزيد . وكان ذلك في شوال ٣٢٧ هـ/ آب (أغسطس) ٩٣٩ م . وكان الناصر – كعادته – قائد هـــذه المعركة التي ضاع فيها مصحفه ودرعه، ونجا من الموت بأعجوبة .

(١) البكري ، جغرافية الأندلس وأوروبا، ص ٧٥ - ٧٨ ؛ عنان ، دولة الإسلام في الأندلس ، ٢/٣٨٧–٣٩٠ .

وكانت معركة الخندق هي الوحيدة التي خسرها الناصر طوال حكمه البالغ خمسين سنة (٣٠٠-٣٥٠ هـ / ٩١٢-٩٦١م) .

وكان من أسباب هزيمة المسلمين في هذه المعركة طائفة من جند الناصر لدين الله حَسَدَتْه على ما هَيَّأ الله له من الصُّنْع ولم تُناصِحْه في الحرب حق النصح فتَحَوَّلتْ عنه وقد ثَنَتْ أعِنَّة خيلها فاختلت صفوف القتال ، كما يقول ابن الخطيب في كتابه « **أعمال الأعلام** » (١) .

لكن خسارة المسلمين في هذه المعركة كانت نتيجة عوامل طارئة استطاع الناصر معالجتها والقضاء عليها فكان النصر للمسلمين بعد ذلك في كافة المعارك اللاحقة كما كان من قبل في التي سبقتها. بلغت قوة الأندلس بعدها أن ملوك الشمال الاسباني وغيرهم من ملوك الدنيا كانت تأتي وفودها متسابقة تملأ الدروب إلى قرطبة طارقة باب الخلافة الإسلامية في الأندلسية طالبة صداقتها أو مساعدتها . **وأن مصادر التاريخ الأندلسي قد حَفِظَتْ جُمْلَةً من هذه المَشاهِد التي تُشير إلى القوة والمَنَعَة التي بها حقق المسلمون النصر والتفوق .**

(١) ص ٣٧ .

فتية لشبونة المغررون

الحضارة الإسلامية مليئة بالصفحات الناصعة ، وما أكثر ما فيها من مجهول يقتضي الجهود الضخمة لإخراجه للنور ، وهذا الموضوع ما يزال جديداً على البحث والدراسة . وقد شملت هذه الحضارة كافة الجوانب الحياتية التي تدل على تقدم الإنسان، مادياً وروحياً . وأوضح ما يكون ذلك في الحضارة الأندلسية ذلك المعين الفياض الذي ارتوى الغرب منه لقرون وأفاد أكبر فائدة في بناء حضارته الحالية ومَهَّدَ لكثير مما حققه .

وللنشاط الجغرافي نصيب وافر في هذه الحضارة ، وإسهام المسلمين الكبير في هذا العلم معروف ، بما في ذلك الكشوف الجغرافية التي سبق بها المسلمون غيرهم أو تحطيمهم لبعض الآراء الجغرافية التي غدت منذ قرون ـ في صحتها ـ كالعقائد. فجهودهم الجغرافية البرية والنهرية منها والبحرية عظيمة صادقة قادت الى كثير من الكشوف الحديثة ، والأمثلة على ذلك كثيرة أي كثرة .

فسليل الأسود شهاب الدين أحمد بن ماجد (المتوفى بعد سنة ٩٠٤ هـ / ١٤٩٨ م) يعتبر من كبار البحارة المسلمين ومن العلماء الأوائل في فن الملاحة البحرية . فله ما يقارب الأربعين مؤلفاً في هذا الفن ، تقوم على التجربة والخبرة إضافة الى الدراسة والملاحظة ، لذلك لقب بـ« **أسد البحر** ». ولقد كان البحارة في البحر الأحمر والمحيط الهندي حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي ، قبل أن يبحروا ، يقرأون الفاتحة لروح الشيخ إبن ماجد إعترافاً بفضله (١) . وهو مخترع الإبرة المغناطيسية وهو الذي أطلع فاسكو دي غاما Vasco da Gama الرحالة البرتغالي (الذي ينسب إليه اكتشاف طريق جديد للهند) على بعض الخرائط والمعلومات وهو الذي كان دليل دي غاما (الذي نعرف عنه أكثر مما نعرف عن إبن ماجد) وقاد سفينته في سنة ٩٠٤ هـ / ١٤٩٨ م من مالندي Malindi في كينيا Kenya على ساحل إفريقيا الشرقية الى كلكتا Calcutta في الهند . وكثير من الذين يتحدثون عن اكتشاف هذا الطريق الجديد الى الهند يذكرون دي غاما وينسبونه إليه لكنهم ينسون أو يجهلون « المعلم » أحمد بن ماجد الذي هو أحرى بلقب مكتشف طريق الهند لا فاسكو دي غاما . ومن يدري فلولا الشيخ ابن ماجد لتأخر هذا الكشف السنوات الطوال ولما كان لدي غاما مثل هذا الشأن .

---

(١) الزركلي ، الأعلام ، ١ / ١٩١ .

ولا يستبعد أن الجغرافيين المسلمين قد تخيلوا وجود أماكن أو قارات أخرى كأمريكا قبل اكتشافها بقرن ونصف . فقد ذكر إبن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م نقلاً عن أبي الثناء الأصفهاني قوله : « لا أمنع أن يكون ما إنكشف عنه الماء من الأرض من جهتنا منكشفاً من الجهة الأخرى وإذا لم أمنع أن يكون منكشفاً من تلك الجهة لا أمنع أن يكون به من الحيوان والنبات والمعادن مثلما عندنا أو من أنواع وأجناس أخرى » (١) . وربما كانت لهم محاولات في هذا الشأن ، وهذا ما دفع بعض الباحثين الى القول بأن المسلمين هم مكتشفو أمريكا قبل كريستوف كولومبوس Christopher Columbus (Sp. Cristobal Colon) بزمن طويل ، خاصة بعد ثبات إنتقال نباتات الى العالم الجديد لم تكن معروفة فيه من قبل (٢) . وعلى كل حال فإن كولومبوس الإيطالي لم يتخيل وجود أمريكا بل تخيل فقط وجود طريق جديد يوصل الى الهند عن طريق الغرب فاكتشف العالم الجديد عن غير قصد منه سنة ٨٩٨ هـ / ١٤٩٢ م . ولا بد أنه اطلع على مناشط المسلمين وتجاربهم وأفاد من دراسات الجغرافيين الأندلسيين كأبي عبيد البكري (المتوفى ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م) والإدريسي

---

(١) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، ١ / ٣١ .

(٢) عاشور ، المدنية الاسلامية ، ص ١٢٢ - ٣ ؛ بامات ، دور المسلمين ، ص ٧٨ .

(المتوفى سنة ٥٦٠ هـ / ١١٦٥ م) ومن خرائطه والوسائل الملاحية الأخرى كما لا بد أنه كان على علم بقصة إستكشافية بحرية قام بها بعض مسلمي الأندلس ، وتعتبر هذه القصة طريفة غاية الطرافة . ومن عجب إننا لا نجد لهذه القصة ذكراً في الكتب التي وصلتنا إلا عند الشريف الإدريسي في كتابه **« نزهة المشتاق في إختراق الآفاق »**[1] .

وخلاصة هذه القصة الطريفة أنه في القرن الثالث الهجري قامت جماعة أندلسية بمخاطرة جريئة لكشف سر المحيط الأطلسي الغامض وتبديد المخاوف التي بالغ القدماء في تجسيمها .

ففي مدينة لشبونة (عاصمة البرتغال حالياً [ورد رسمها في المصادر الأندلسية : أشْبُونَة أو الأشْبُونَة]) إجتمع ثمانية رجال مُغرَّرين – أو هكذا أطلق عليهم – واتفقوا على خوض بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) ليعرفوا ما فيه والى أين انتهاؤه ، فأنشأوا مركباً حمالاً وملؤوه من الزاد والماء مؤونة تكفيهم لأشهر. فركبوا البحر في أول هبوب الريح الشرقية وبعد أحد عشر يوماً من إبحارهم وصلوا مكاناً عنيف الموج كدر الروائح كثير الصعوبات قليل الضوء حتى أيقنوا بالموت ، فغيروا خط سيرهم الى الجنوب . وبعد إثني عشر يوماً وصلوا جزيرة

(١) طبعة روما ، ص ١٨٢ - ٤ .

الغنم فنزلوها ووجدوا فيها من الغنم ما لا يحصى ، وهي سارحة لا راعي لها ولا ناظر إليها ، كما وجدوا عين ماء جارية وعليها شجرة تين بري ، فأخذوا من تلك الغنم وذبحوها ولكنهم وجدوا لحمها مراً فحملوا معهم من جلودها وعادوا الى مراكبهم . ثم ساروا في اتجاه الجنوب إثني عشر يوماً حتى لاحت لهم جزيرة ذات عمران وحرث . فقصدوا إليها ليروا ما فيها ، فما كان غير بعيد حتى أُحيط بهم في زوارق هناك فأخذوا وحُملوا في مراكبهم الى مدينة على ساحل الجزيرة فشاهدوا رجالاً شقراء شعورهم وسبطة طوال القامة ولنسائهم جمال عجيب فاعتقلوا ثلاثة أيام . وفي اليوم الرابع جاءهم ترجمان الملك ، وكان يعرف العربية ، فسألهم عن حالهم ولِمَ جاءوا وما بلدهم ؟ فأخبروه خبرهم فوعدهم خيراً . وفي اليوم التالي أُحضروا بين يدي الملك فأعادوا عليه قصتهم فضحك وقال للترجمان : خبرهم أن أبي أمر قوماً من عبيده بركوب هذا البحر وأنهم جروا في عرضه شهراً إلى أن انقطع عنهم الضوء فانصرفوا من غير جدوى . ثم عاد الفتية من عند الملك بعد أن وعدهم بما يطيِّب خواطرهم ويحملهم على حسن الظن . فصُرِفوا إلى موضع حبسهم حتى بدأ جري الريح الغربية فعمِّرَ بهم زورق وعُصِبت أعينهم وجُرِيَ بهم في البحر مدّة ، قال القوم قدرناها ثلاثة أيام ، بلياليها ، حتى جيء بنا الى البر فأخرجنا وكتفنا الى خلف وتُركنا بالساحل الى أن تضاحى النهار وطلعت الشمس ونحن في ضنك وسوء حال من شدة الكتاف حتى سمعنا ضوضاء وأصواتاً فصحنا بأجمعنا

فأقبل القوم إلينا وحلوا وثاقنا وأخبرناهم خبرنا ، فقال لنا أحدهم : أتعلمون كم بينكم وبين بلدكم ؟ فقلنا : لا . قال : مسيرة شهرين . فقال زعيمنا : واأسفي ، فسمي المكان الى اليوم (آسفي) ، وهو المرسى الذي في أقصى المغرب .

ويؤخذ من كلام الإدريسي أن هؤلاء الثمانية عادوا إلى لشبونة وسردوا قصتهم على أهلها الذين لم يروا فيهم إلا رجالاً مغرورين وسموا الدرب الذي فيه دورهم بـ «دَرْب المغَرَّرين».

لم يذكر الإدريسي إتجاههم الأول ولذا جعله البعض الى الشمال حتى أصبحوا بمحاذاة إيرلندا ، وجعله المرحوم شكيب أرسلان (١) خطاً مستقيماً الى الغرب فوصلوا بعد سفر ، يرجح أنه استمر أكثر مما ذكره الإدريسي ، قريباً لإحدى جزائر المحيط بين أمريكا الشمالية والجنوبية التي بين ١٠ و٢٧ درجة من العرض الشمالي وبين ٦٢ و٨٧ درجة من الطول . وهذا أمر يمكن قبوله ـ رغم عدم استطاعة ترجيحه لحاجته الى أدلة أخرى ـ حيث أن استعدادهم كان يقصد به الإستمرار في الرحلة في الاتجاه الغربي للأندلس لأشهر عدة ، مع التصميم على المضي في تحقيق الهدف رغم إدراكهم صعوبة المهمة . ولو ثبت أنهم ساروا طيلة إبحارهم في اتجاههم الأول أو استمروا في السير فيه لأطلوا على أمريكا أو وصلوا قريباً منها . والظاهر أنهم

(١) الحلل السندسية ، ١/٩٢ - ٦ .

يئسوا من الوصول إلى البر في ذلك الإتجاه فتحولوا جنوباً حتى جزيرة الغنم ثم عادوا جنوباً إلى الشرق فوصلوا احدى جزر الخالدات التي تعرف بإسم جزر كناري The Canary Islands ثم وصلوا إلى المغرب . ولعله من الممكن التحقق من وصولهم موضع مدينة « آسفي » إذا حسبنا المسافة التي كان يسيرها مركبهم ومسافة ما بينها وبين لشبونة . ومن أسف أن الإدريسي لم يذكر لنا كيف عادوا من إفريقيا إلى لشبونة .

وعلى كل حال فقد كان لهذه القصة ، التي لا أشك في واقعيتها ، أثر كبير في تشجيع البحارة البرتغاليين وغيرهم على القيام برحلات إستكشافية . ونظراً لأهميتها قام بعض الأوربيين بوضع مثل هذه القصة في القرن الحادي عشر الميلادي ونسبتها إلى القديس براندان الراهب الإيرلندي الذي عاش في القرن السادس الميلادي فقط (١) .

والقصة بعد ذلك دليل على روح المغامرة المتأصلة في نفوس الرحالة المسلمين وعدم مبالاتهم بالخطر حباً في الكشف عن المجهول.

ومن يدري فلعل في تراثنا الزاهر مثيلات لهذه البطولة فُقدت إلى الأبد فيما فُقد من المخطوطات ، أو أنها ما تزال في انتظار من يكشف عنها ويخرجها إلى النور ، وكل رجائنا ألا يطول بنا الانتظار .

(١) العبادي ، صور وبحوث ، ص ١٤٩ وبعدها .

أسس الحضارة الإسلامية في الأندلس *

ودورها في الحضارة الأوروبية

أسهمت أمم كثيرة خلال التاريخ في بناء حضارة الإنسان الحالية وكان دور الأمة المسلمة في هذه الحضارة كبيراً . والحضارة الإسلامية وليدة التعاليم الإسلامية الإنسانية النزعة . وليست حضارة الإسلام غير ذلك الإنتاج الفكري المتعدد الإتجاهات المُوَحَّد الروح والهدف الذي نشأ في ظل الإسلام وشاركت فيه كل الأمم والأجناس البي ضمها هذا الدين وربط بينها وكَوَّن منها مجتمعاً لا تحده حدود قومية .

وكانت العربية هي اللغة التي كتب بها هذا الإنتاج أو غالبيته . والإسلام دعوة لبناء الأرض وعمارتها ، دعوة ضد الطاغوت بكل أنواعه . وقد جاء الإسلام بالقواعد الإنسانية

---

* ملخص المحاضرة التي ألقيت في الموسم الثقافي الأول بجامعة الرياض مساء الثلاثاء ١٩ شعبان ١٣٨٧هـ .

لتوجيه الإنسان في كل ميادين الحياة وخط الطريق لتحقيق إنسانيته ، وبهذا سار الركب محافظاً على هذه المبادىء وكان يبتعد عن الخط السوي يوم تتنكب قدمه عن الخط المسلم .

وكان إندفاع المسلمين إلى العلوم والاهتمام بها مساوياً لنشاطهم في تحقيق الأهداف الأخرى للإسلام كالفتوحات مثلاً . وإن التراث الذي قدمته حضارة الإسلام كان زاخراً في كل ميادين المعرفة الإنسانية . وإن ما كُتِب باللغة العربية عن الفلسفة والطب والتاريخ والفلك وغيرها من العلوم والفنون فيما بين القرنين التاسع والثاني عشر للميلاد فاق كل ما كتب بأي لسان آخر .

ولم تكن الانتاجات الفكرية في حضارة الإسلام هي ثمرته الوحيدة لكنه أوجد عقائد ومفاهيم غَيَّرَت تَصَوُّر الإنسان للحياة والكون . ويُعتبر الإسلام ثورة حقيقية طلع نورها على هذه الأرض ، وهو الذي كرم الانسان وحقق إنسانيته وأضاء له الحياة . **فحضارة الاسلام - إذاً - تشمل ايضاً كل المثل العملية التي عاشت في المجتمع المسلم في كل نواحي الحياة وعلى كل المستويات** . وإن الحضارة الحالية وحضارة الغرب بصورة خاصة قد أخذت دون تحفظ كثيراً من أصولها من هذه الحضارة الإسلامية . ولكنها لأسباب لم تقتبس إلا بحدود نادرة من الجانب العملي الاجتماعي للاسلام .

والحقيقة إن أية حضارة تتخلى عن هـــذا الجانب الخلقي الاجتماعي ستظل حضارة عرجاء . وهذا الجانب هو ما تفتقر إلى كثير منه الحضارة الحالية .

والحديث في الحضارة الاسلامية لا بد أن يكون ايضاً حديثاً عنها باعتبارها ثمرة من ثمار العقيدة الاسلامية . وكان المسلمون الفاتحون يحملون معهم أينما ذهبوا مبادئهم الرفيعة وأخلاقهم العـــالية ومثلهم الإنسانية . كانوا كذلك يحملون معهم العلم والمدنية ويضعون بذور التقدم والحضارة . ومن هنا لا بد لنا حين ندرس حضارة الإسلام أن نربط هذه الحضارة بالأساس الذي قامت عليه وهو العقيدة الاسلامية .

ولا بد لنا أن نفهم التاريخ الإسلامي كذلك على ضوء هذه النظرة . وليس التـــاريخ والحضارة إلا مظهران من مظاهر الاسلام كنظام عالمي متكامل . وإن العصور الزاهرة في تاريخ الإسلام تميزت بالانتاج الحضاري الرائع كانت هي في عين الوقت متميزة بالروح القوي الذي جعـــل التقدم المادي يواكب نداء المآذن زاحفاً في ركب متناسق . وإن العبقرية العلمية التي حقق بها المسلمون الأولون هذه العجائب والانجازات في شتى ميـــادين العلم والمعرفة كانت تصدر من أفق منير ملتزم بالايمان بالله وبمثل الاسلام النيّرة ولذلك فلا نعدو الصواب إذا ربطنا بين التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية وبين مقدار عمق هـــذه العقيدة

وسيطرة أنظمتها على المجتمع وبين ذلك كله وبين مجريات الأحداث والانتاج العلمي فيه .

وإهتمام الإسلام بالاتقان في بناء الحياة الجدية في الوصول إلى الأفضل لا يحتاج إلى بيان. والآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة متواترة كثيرة ، وإهتمام الإسلام بالعـــلم أمره معروف ما دام الإسلام يعتبر مداد العلماء كدماء الشهداء .

وبوحي من هـــذه الروح نجد أن أبا الريحان البيروني حينما حضرته الوفاة وجاءه أحـــد الزائرين دار الحديث حول بعض مسائل الميراث وطلب البيروني من زائره توضيحهـــا له فقال له الزائر تسأل عن هذا وأنت في هذه الحال ؟ فقـــال له البيروني ويحك لأن أذهب إلى الله وأنا أعرفها خير من أن أذهب إليه وأنا أجهلها .

وعلى هـــذه الأسس والمقومات بُنِيَت حضارة الإسلام ، **وكانت لهذه الحضارة مراكز إشعاع عديدة تعتبر الأندلس اكثرها إشراقاً .**

وحضارة الإسلام في الأندلس هي موضوع هذا الحديث الذي سأتناول فية بالبيان جانبين :

١ — وصف لهذه الحضارة الأندلسية الإسلامية .

٢ — أثر هذه الحضارة على أوروبا .

والأندلس (التي يسميها الباحثون الغربيون اسبانيا الاسلامية مقابل اسبانيا المسيحية) هي : تلك المناطق التي سيطر عليها المسلمون من شبه الجزيرة الإيبيرية Iberian Peninsula (اسبانيا والبرتغال اليوم) .

وكانت حالة إسبانيا قبل الفتح الإسلامي لا تختلف عن بقية أوروبا في الجهل والتأخر . ولما كان الفتح الإسلامي لأسبانيا أزال عنها هذه الأوضاع وحمل إليها الخير والحضارة .

وافتتحت الأندلس على يد طارق بن زياد الذي أرسله موسى بن نُصَيْر والي الشمال الإفريقي وذلك في نهاية القرن الأول الهجري .

وبقي الإسلام في الأندلس ثمانية قرون ، وضع سقوط غَرناطة Granada نهايتَها في ٨٩٧ هـ/ ١٤٩٢ م.

لقد مرت الأندلس خلال هذه القرون الثمانية بفترات متنوعة متباينة قوة وضعفاً . فبعد الفتح الإسلامي لإسبانيا كانت فترة الولاة التي انتهت بقيام الإمارة في الأندلس على يد عبد الرحمن الداخل في سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م . واستمرت هذه الفترة حتى قيام الخلافة الأندلسية التي أعلنها الخليفة عبد الرحمن الناصر في ٩٢٨/٣١٦ . وانتهت بقيام دويلات الطوائف بعد ضياع وحدة الأندلس وسقوط الخلافة فيه ثم كان حكم المرابطين والموحدين من

الشمال الإفريقي ثم قامت دولة غَرناطة التي أسسها محمد بن الأحمر والتي استمرت حوالي قرنين ونصف .

ولا شك إن حضارة الأندلس كانت لها أصول من الشرق الإسلامي لكن هذه الحضارة نمت في الأندلس وتطورت في تلك الأرض الخصبة وإن حضارة الاسلام في الشرق أو في الغرب استفادت قبل ذلك من حضارات الأمم السابقة .

توفر في الأندلس الاستقرار السياسي وكان المجتمع الأندلسي يضم عناصر وأجناساً كثيرة مسلمة ومن أصحاب الديانات الأخرى مسيحيين ويهود عاشوا في مجتمع يسوده التسامح الكامل ، للكفاءة والمؤهلات الاعتبار الاول . ومن هنا كان المجال مفتوحاً لظهور العلماء والمفكرين من كل الأجناس ومن أتباع كافة الديانات . والتسامح الإسلامي الرائع في اسبانيا الاسلامية واضح ولا يحتاج إلى تأكيد وقد حدثنا عنه بثناء كثير من الباحثين الغربيين أنفسهم وعن طريقه أخذت أوربا شيئاً من هذا التسامح [1] .

أسلمت الملايين من سكان الأندلس الأصليين عن طواعية وكانت لغير المسلمين الحرية الكاملة في كل أمورهم الدينية وفي عقد مؤتمراتهم كمؤتمري إشبيلية Seville في سنة ٧٨٢ م وقرطبة

---

(١) رينو ، تاريخ غزوات العرب ، ص ١٥٦ ، ٢٨٨ ؛ حتي ، تاريخ العرب ٦٠٧/٢ ؛ لوبون ، حضارة العرب ، ص ٢٧٦ - ٧ .

Cordoba سنة ٨٥٢ م (١) . وكانت المصاهرات شائعـــة بين المسلمين وبين غيرهم سواء في الأندلس أو مع المسيحيين في خارجها ونعني على وجه الخصوص إسبانيا المسيحية في الشمال . وكما كان هذا شائعاً بين عامة الشعب كذلك كان مع حكام الأندلس .

وكان عبد الرحمن الناصر حفيداً لأميرة مسيحية من بلاد نافار Navarre في الشمال الاسباني وكم كان من أمنـــاء سر (سكرتارية) أمراء الأندلس مسيحيين ، كما كان بعض سفرائهم من غير المسلمين .

وكانت في الأندلس طبقـــة من المسيحيين سُمِّيَت بـ « المُستَعرَبين » (٢) ، لأنها اتخذت – بإرادتها – العربيـــةَ لغةً والتقـاليد الاسلامية عادة ، كالختان – مثلاً – الذي هو عادة إسلامية . وتحت ظلال هذا التسامح الإسلامي امتزجت كافة القابليات للمجتمع الأندلسي. وفي مثل هذا النضج والاستقرار السياسي أصبحت الأندلس أكـــبر قوة سياسية وحضارية في العالم ، تأتيها الوفود من كل مكان تطلب صداقتهـــا وودها ، كما يروي ذلك إبن حيّان القُرطُبي على ما يورده لنا المَقّري في كتابه **نفح الطيب** (٣) .

---

(١) لوبون ، ص ٢٧٦ .

(٢) راجع عن هـــذا الاصطلاح : مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٤٢٥ – ٢٩ .

(٣) ١/٣٤٣ .

ولا تمكن المقارنة بين هذه السياسة المتسامحـة وبين سياسة التعصب والاضطهاد التي صُبَّت على المسلمين في الأندلس قبيـل وبعد سقوط غرناطة ، حيث ذُبِحَت الآلاف المسلمة التي رُفِضَ حتى تنصُّرها لعدم الثقة بنواياها (١) .

لقد بدأت بوادر الحضارة الإسلاميـة في الأندلس بالظهور منذ أيام عبد الرحمن الأوسط في النصف الأول من القرن التاسع الميلادي واستمرت في الإزدهار حتى بعد سقوط الخلافة بـل وحتى نهاية الأندلس عند سقوط غَرناطة سنة ١٤٩٢ م . **وكانت هذه الحضارة تشمل كل الجوانب وكافة النواحي ؛ ولم تكن تعتمد على النقل فقط، كما يصور ذلك البعض جهلاً او تجاهلاً، بل اعتمدت على الابداع والابتكار فقدمت للانسان اروع المنجزات .**

فهي حضارة تتصف بالعموم لا بالنسبة لشمولهـــا لنواحي المعرفة الإنسانية بل ولشمولها لكافة العناصر والمستويات وللذكور والأناث . وبلغت في ذلك مرحلة عالية . فيروي لنـــا ياقوت الحموي في **معجم البلدان** حين الحديث عن مدينة شِلْب Silves الأندلسية (التي تقع الآن جنوب البرتغـال) ، يقول ياقوت : « قلَّ أن ترى من أهلها مَن لا يقول شعراً ولا يُعَاني أدباً ، ولو

---

(١) عِنان ، نهاية الأندلس ، ص ٣٧٩ – ٣٩٠ ؛ حتي ، تاريخ العرب ، ٢/٦٥٩ – ٦٠ .

مَرَرْتَ بالفلاّح خلف فدانه وسألته عن الشعر قرض في ساعته ما اقترحت عليه وأي معنى طلبت منه »(١).

كما يروي لنا عبد الواحد المراكشي في كتابه (**المعجِب في تلخيص اخبار المغرِب**) بأنه « كان بالرَّبَض الشرقي في قُرطُبَة ١٧٠ إمرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي »(٢).

ويُروى أنه كان في الأندلس أيام الحكم المستنصر (المتوفى سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م)، سبعون مكتبة عامرة عدا المكتبات الخاصة للمشاهير من الرجال والنساء؛ بالاضافة إلى مكتبة قرطبة الرئيسية التي يقول عنها إبن حَزْم بأن عدد مجلدات فهارس هذه المكتبة تَعُدُّ ٤٤ مجلداً (٣).

وفي الوقت الذي كانت الأندلس تحمل إمامة العلم والثقافة كانت أوروبا تمر في العصور المظلمة التي تسمي بالعصور الوسطى (من القرن الخامس إلى الخامس عشر الميلادي). ويصف لنا صاعد الأندلسي سكان الأقطار الأوروبية في ذلك الوقت فيقول بأنهم « أشبه بالبهائم وأن من كان منهم موغلاً في بلاد الشمال عَظُمَتْ أبدانُهم وابْيَضَّتْ ألوانهم وانسدلت شعورهم

(١) ٣/٣٥٧.
(٢) ص ٣٧٢.
(٣) جمهرة أنساب العرب، ص ١٠٠؛ حقي، ٢/٦٢٦، ٦٣١ - ٣؛ عِنان، دولة الاسلام، ٢/٤٥٧ - ٤٦٠.

فعُدِموا بها دقة الأفهام وثقوب الخواطر وغلب عليهم الجهل والبلادة وفشى فيهم العمى والغباوة »(١).

وازدهرت الأندلس بمكتباتها وبالمؤلفات الكثيرة التي احتوتها في مختلف العلوم والفنون. والذي وصلنا من تلك الثروة قليل، أكلته كثير من الحوادث على مر القرون. ويكفي أن نذكر أنه بعد سقوط غرناطة وفي حوالي ٩٠٥ هـ / ١٥٠٠ م قام خمينس Ximénez De Cisneros مطران طُلَيْطُلَة Toledo بالاحتفال بحرق المخطوطات العربية في أحد ميادين غرناطة. ومن المحتمل أنه أحرق في هذا الاحتفال المنكود ما قد يقل أو يصل إلى مئة ألف مخطوط عربي (٢).

ولا تزال بقايا هذا التراث موزعة في مكتبات الشرق والغرب. وهذه البقايا تمثل ثروة ضخمة هي بأشد الحاجة إلى العناية والبذل لإنقاذها وبعثها الى النور والحياة. ومكتبة قصر الإسكريال El Escorial قرب مدريد أحد الأماكن التي تضم حوالي ألفين من المخطوطات العربية التي تشمل كثيراً من ميادين المعرفة (٣).

وانتقلت الحضارة الإسلامية إلى أوروبا خلال معابر عديدة هي: الأندلس وصِقِلِّيَة والحروب الصليبية. ولعله من الصواب

(١) طبقات الأمم.
(٢) عنان، نهاية الأندلس، ص ٣٠٠؛ حقي ٢/٦٥٨ - ٩.
(٣) عِنان، الآثار الأندلسية، ص ٤٣٤.

أن نضيف إليها جنوب فرنسا وجنوب إيطاليا ومراكز الترجمة في إسبانيا وفرنسا وإيطاليـــا ، وكذلك التُجَّار الذين كانوا يتنقلون بين البلدان المختلفة ووصلوا إلى عـــدد من الاقطار الاوروبية . وعلى كل حال فإن الاندلس من أهم معابر الحضارة الاسلامية إلى أوروبا .

وكانت في الاندلس مراكز مهمة للترجمة وكذلك في أوروبا وكانت متخصصة لهذا الهدف. وفي مدينة طُلَيْطُلَة تأسست في أواسط القرن الثاني عشر الميلادي مدرسة للترجمة بقيت ما يقرب من قرنين تقوم بهذا الدور وقد عمل فيها رجال من مختلف البلدان الاوربية [١] .

وترجم كثير من الكتب في مختلف الميادين الى اللغة اللاتينية. ويكفي أن نذكر أن جيرارد الكريموني Gerard of Cremona الايطالي الجنسية ترجم وحده الى اللاتينية أكثر من سبعين كتاباً عربياً [٢]. وبذلك انتقلت هذه العلوم إلى عـــدد من البلدان الاوروبية وكانت جامعة مونبليه Montpellier جنوب فرنسا في القرن الثالث عشر للميلاد من المراكز المهمة في الدراسات الطبية في فرنسا . وكان عدد من أساتذتها مسلمين [٣].

---

(١) حتى ، ٢/٦٩٨ .
(٢) عاشور ، المدينة الإسلامية ، ص ٦٥ .
(٣) رينو ، تاريخ غزوات العرب ، ص ٢٩٦ .

والحضارة الاسلامية في الاندلس امتدت الى كافة الميادين وظهر في كل منها عباقرة ومُبْدِعون فشملت كل ألوان النشاط الفكري ، وإليك هذا البيان الملخص :

الأدب

بلغت الاندلس مكانة عالية وأصبح الأدب عاماً بين الرجال والنساء . ولدينا أسماء لامعة كثيرة، وللأسف ضاع إنتاج الكثير منهم ومنهن ولقد نقلت بعض كتب الادب الى اللغات الاوربية وتأثر بعض الكتّاب الأوربيين بالانتاج الادبي العربي مثل الكاتب الاسباني الكبير ثيرفنتس Cervantes، ودانتي Dante الايطالي في الكوميديا الإلهية The Divine Comedy حتى ليقـال أن شكسبير Shakespeare الكاتب الانكليزي المعروف كان متأثراً في بعض أو أحد رواياته بالادب العربي[١] .

ولقد أضافت الأندلس إلى التراث الأدبي فنوناً أدبية جديدة كالموشحات والأزجال اللّذَيْن إسْتُعْمِلا في الغناء .

الفلسفة

لمعت في هذا الميدان أسماء كثيرة أمثال إبن باجة الفيلسوف،

---

(١) عاشور ، ص ٨١ ؛ حتى ، ٢/٦٦٣ ؛ بامات ، دور المسلمين ، ص ٧١ ؛ بالنثيا ، ص ٥٥١ .

وإبن رشد Averroes الذي يعتبر من أعظم فلاسفة الاندلس ، ترك أثراً واضحاً في الغرب ، وكذلك ابن طفيل صاحب قصة حي بن يقظان التي نقلت الى كثير من اللغات الأوروبية . ولقد ترجمت كتب ابن رشد الى اللاتينية وكانت آراؤه ذات تأثير بالغ على الفلسفة الأوربية في القرون الوسطى .

الجغرافية والرحلات

وللمسلمين فيهما إنتاج كثير ، ولهم يعود الفضل في إرتياد كثير من الاماكن والبحار وكذلك سن وتشجيع كشف المجهول وهم اللذين مهدوا الطريق الى الرحلات الإستكشافية فيما بعد . وهم أصحاب النظريات والأدوات البحرية. وقد ظهر في الاندلس عدد من الجغرافيين الذين لمعت أسماؤهم وكانت لهم الإنتاجات القيّمة كالرازي والبَكري والعُذْري والإدريسي وابن بَطّوطة وآخرين .

وفكرة كروية الأرض قال بها المسلمون وبرهنوا عليها .

ولقد ازدهرت التجارة الإسلامية وأصبح للمسلمين مراكز تجارية في بلدان غالبية سكانها غير مسلمين . وكان المسلمون يتمتعون فيها بمكانة طيبة لما كانوا مصدر ثقة لأولئك السكان ، نظراً للمثل التي كانوا يتحرونها .

التاريخ

لقد غدا التاريخ علماً قائماً بذاته. ويعتبر إبن خَلْدون مؤسس

فلسفة التاريخ ، ولقد تُرجمت مقدمته إلى عدة لغات ، ومنها إستمد بعض علماء الاجتماع عدداً من نظرياتهم الاجتماعية . ولقد إحتل المؤرخون الأندلسيون مكانة عالية كإبن حَيّان والرازي وإبن الخطيب . وكان إبن حَيّان معروفاً بطريقته النقدية التحليلية ، وللأسف فقد ضاعت أكثر كتبه .

التعليم الجامعي

لقد نَقلت أوروبا أساليب التعليم وأنظمة الجامعات في عين الوقت الذي كانت تنقل فيه العلوم الإسلامية . ولعل نظام الشهادات الأوربية متطور عن نظام الإجازة العلمية [1] ، وهو نظام إسلامي . كما إن بعض أنظمة التدريس واختيار الاساتذة وتقاليدها نُقلت إلى أوروبا عن طريق الاندلس أو غيرها من معابر الحضارة الإسلامية .

وكانت الاندلس مشهورة بجامعاتها في قُرْطُبَة وغَرْناطة وإشْبيلِيَة وغيرها ، وكان للأساتذة نظام يُختارون على أساسه. وكان يَفِدُ إلى هذه الجامعات الألوف من طلبة أوروبا وغيرها . وإن البابا سلفستر الثاني Sylvester II كان قد درس في الاندلس على أيدي العلماء المسلمين ثلاث سنوات ، تلقى خلالها دراسات في الرياضيات والفلك والكيمياء وغيرها [2].

---

(١) عاشور ، المدنية الإسلامية ، ص ١٧٥ .

(٢) رينو ، تاريخ غزوات العرب ، ص ٢٩٦ ؛ والترجمة الانجليزية ص ٢٢٤ .

الفلك

جعل المسلمون الفلك علماً بعيداً عن الخرافات ، وألفوا فيه الكتب الكثيرة التي ترجمت إلى اللغات الأوروبية . وكان للمسلمين في الاندلس مراصد ، مثلاً في قُرْطُبَة وطُلَيْطُلَة . ومن الفلكيين الأندلسيين أبو القاسم المجريطي الذي ترجمت بعض كتبه إلى اللاتينية [1] . واخترع المسلمون في الاندلس نوعاً من الساعات (الميقَاتَة) .

الرياضيات

وبالنسبة لهذا العلم فقد تقدم في الاندلس ، وأضاف المسلمون إليه كثيراً من الافكار والنظريات الجديدة . وقد تأثرت أوروبا به إلى حد كبير ، تــدل على ذلك الاصطلاحات الرياضية التي لا تزال موجودة حتى اليوم . والأرقام الاوروبية عربيـــة ، والصفر الذي حل مشاكل كثيرة في الرياضيات نقل إلى أوروبا عن الاندلس [2] .

الفيزياء

لقد وضع المسلمون كثيراً من أسسه . وأن نظرية الجاذبيـة

---

(١) حتي ٢/٦٧٨ ؛ لوبون ، حضارة العرب ، ٤٦٢ .

(٢) عاشور ، ص ١٠٠ .

لها أصل إسلامي [1] ، كما أن العلماء المسلمين تحدثوا عن المغناطيسية والعدسات والبصريات . وأبدعوا في هذا المجال كثيراً .

الكيمياء

لقد نقلت أوروبا من المسلمين كثيراً من قواعدها وأصولها ، والأسماء العربية التي بقيت حتى اليوم في اللغات الاوربية تشير إلى هذا التأثير [2] .

وتوصل المسلمون إلى عـــدد من الصناعات بواسطة المواد الكيماوية في الصباغة والدباغة وصناعة المعـادن . وهم الذين استطاعوا لأول مرة جعل البارود مادة متفجرة دافعـة قابلة لاطلاق القذائف [3] .

العمارة والهندسة

تُعتبر المبـــاني الاندلسية (التي لا يزال بعضها حتى اليوم ينطق بالمستوى الذي وصلت إليه) قمة في فن الهندسة المعمارية [4] . وللأسف فقد اندثرت بعض هذه المباني التي وصفها لنا الرحالة

---

(١) عاشور ، ص ١٢٩ .

(٢) عاشور ، ص ١٤٠ ، لوبون ، ص ٤٧٥ .

(٣) عاشور ، ص ١٤١ .

(٤) حتي، ٢/٧٠٥ ؛ لوبون، ص٥٣٩ .

والجغرافيون بالاوصاف الرائعة وبالفنية العالية والدقة المتناهية، كقصر الزهراء الذي أنشأه الخليفة عبد الرحمن الناصر. ولا تزال بدائع هذا الفن في اسبانيا بادية حتى اليوم.

الصناعة

من أول ما يذكر، في هذا الميدان، صناعة الورق التي إزدهرت في الاندلس التي تعتبر من أهم الخدمات التي أسداها المسلمون للعالم كله [1]. كما ازدهرت صناعة الفخّار والفسيفساء الملونة، وكذلك المنسوجات التي كانت الاندلس تحتل فيها مرتبة عالية.

الطب

لقد ترك لنا المسلمون في الاندلس في هذا العلم ثروة كبيرة، وظهر أطباء ماهرون منهم – على سبيل المثال – أبو القاسم الزهراوي المتوفى سنة ١٠١٣ م. وهو صاحب كتاب «**التصريف لمن عجز عن التأليف**» [2]. أورد فيه آراء جديدة تتعلق بالتشريح وإجراء بعض العمليات في العيون والاسنان والولادة.

كذلك أسرة بني زُهر التي تخصصت في علم الطب.

---

(١) قارن: حق، ٢/٦٧٠.

(٢) حق، ٢/٦٨٥.

ويوم انتشر مرض الطاعون في أوروبا في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي ووقف القوم هناك حياله مستسلمين باعتباره من قضاء الله فلا تجب مقاومته وضع الطبيب (والأديب المعروف) الغرناطي إبن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٥ م كتابه «**مقنعة السائل عن المرض الهائل**» [1] يدافع فيه عن نظرية العدوى ويثبتها بالأدلة.

الصيدلة

أبدع المسلمون فيه كثيراً بما قدموه من الإنجازات في هذا الميدان. فركبوا الأدوية وألفوا فيها الكتب التي ترجمت إلى اللغات الاوربية. وألف إبن البيطار بعض الكتب فيها وأورد أسماء عدد من المؤلفين في هذا العلم وقد ترجم هذا الكتاب وغيره إلى اللغات الاوربية.

الزراعة والنبات

درست كثير من النباتات ووصفت. وكتاب **الفلاحة** ليحيى بن محمد بن العوام في هذا الموضوع مشهور جداً [2]. وقد نقل المسلمون الى إسبانيا زراعة الزيتون والبرتقال والكروم والقطن

---

(١) حق، ٢/٦٨٤.

(٢) حق، ٢/٦٨٣.

وغيرها [١]. ولا تزال اسبانيا تشتهر بهذه المزروعات حتى اليوم بل وتنتج من بعضها أجود الأنواع .

البحث العلمي

كانت للمسلمين فيه الأساليب السليمة التي هي وليدة الفكر المسلم . وقد اتجه هذا الفكر إلى التعمق . كما انهم أعطوا أهمية للتخصص في فن واحد من العلوم. وإن البحث والتجربة نشأت في أحضان الاسلام الذي فتح الباب على مصراعيه لهذهِ الأمور. وإن روجر بيكون الانكليزي الذي يعتبر صاحب المذهب التجربي نقل هذا المذهب إلى تلامذته من أساتذته المسلمين [٢] كما أشار بنفسهِ إلى ذلك .

المعنويات

لقد تأثرت أوروبا إلى حد ما ببعض المعنويات الإسلامية . ولعل الذي أوقفها عن تقبل هذه المعنويات – قَبولَها للعلوم – مأخوذاتها عن اليونان والرومان بالاضافة إلى ما لديها من التعصب الذي كان يغذيه بعض رجال الدين فيها. وعن المسلمين في الاندلس

(١) لوبون ، ص ٢٧٤ .

(٢) عاشور ، ص ٩٥ .

تعلم الاوربيون قواعد الفروسية وتقاليدها وخصالها [١] .

ونتيجة لهــذه الافكار التي تسربت إلى أوربا من الاندلس الإسلامية ومن غيرها بدأت أوروبا تعي تدريجياً وتصلح من أحوالها وأدت هذه النهضة الفكرية إلى نشأة أفكار جديدة نمت هنـاك شيئاً فشيئاً ومنها انطلقت أوروبا إلى عصر النهضة [٢] . ولعلنا لا نبعد عن الصواب كثيراً إذا قلنـا إن هذه العلوم الإسلامية كانت المنطلق لاوروبا إلى التقـدم العلمي وكذلك إلى عدد من إصلاحاتهـا السياسية وإن كنا لا ننكر إمكانيات وأسباب أخرى محلية .

ولا عيب على أوروبا أو غيرهـا في اقتباسها من الحضارة الإسلامية فإن الحضارة الإسلامية نفسها قد استفادت ممـا لدى الأمم الأخرى التي سبقتها ، لكن الاسلام زاد على ما اقتبسهُ وأضاف الى الحضارة مبتكرات جبارة .

وعن طريق الاندلس وغيرها انتقلت هـذهِ العلوم إلى أوروبا . وكانت هذهِ المُبْدَعات شاملة لكل ميادين الفكر والمعرفة الإنسانية .

وكم كنا نتمنى لو أن حضارة الاسلام استمرت دون إنتكاس إذن لكان الانسان قد حقق اليوم ما سيحققه بعد عدة قرون .

فيوم كانت الاندلس تزخر بالعلم والمعرفة والمدارس والجامعات

(١) لوبون ، ص ٥٧٦،٢٧٨ .

(٢) قارن : لوبون ، ص ٥٧٩ .

ويوم كانت قُرطبة تمتد شوارعها أميالاً عديدة مُضاءة بالمصابيح العامة لم يكن في لندن مصباح عمومي واحد حتى بعد هذا التاريخ بسبعة قرون[1]، ويوم كانت بعض السلطات الكَنَسِيّة تعتبر الاستحمام عادة وثنية كانت قرطبة تتمتع بالحمامات الرائعة.

ومن هذه الحضارة الإسلامية إرتوت أوروبا ونقلت الى لغاتها المؤلفات الإسلامية التي بقيت تُدرَّس في جامعاتها عدة قرون. ونحن الآن نعيش في حضارة مادية تفتقر الى كثير من المُثُل الاسلامية الإنسانية، وإننا فقراء حتى من هذه الحضارة المادية. وإن بين أيدي المسلمين مُثُل الاسلام الرائعة التي أنشأت حضارتهم.

فهل لنا ان نتساءل.

هل ان الاسلام لا يزال يملك القوة الدافعة المبدعة لحضارة رائعة وخلق مجتمع نظيف؟

وهل الأمل في أن المسلمين سيعودون لحمل راية النور؟

الجواب سيكون بالايجاب إذا تدبرنا تعاليم الاسلام العظيمة واعتبرنا تاريخه وحضارته المشرقة التي كان لها السبق في كل ميدان.

والأمل في أن يعود المسلمون لحمل هذهِ الراية، وذلك ما يجعلنا نأمل – بعون الله – أن المستقبل للإسلام وللمسلمين الخلافة في الارض.

---

(1) حتى، ٢/٦٢٦.

المصادر

أولاً – العربية:

١ – إبن الأبَّار، **الحُلّة السِّيَراء**، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٦٣، جزءآن.

٢ – إبن الأبَّار، **إعتاب الكُتّاب**، تحقيق صالح الأشتر، دمشق، ١٩٦١.

٣ – إبن بَسّام، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، القاهرة، ١٩٣٩، الجزء الأول.

٤ – إبن حزم الأندلسي، **جمهرة أنساب العرب**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة، ١٩٦٢.

٥ – إبن حزم الأندلسي، **طوق الحمامة في الألفة والألّاف**،

تحقيق حسن كامل الصيرفي ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

٦ – إبن حوقل ، **صورة الأرض** ، تحقيق كريمر J. H. Kramers ليدن ، ١٩٣٨ ، الجزء الأول .

٧ – إبن حيّان القرطبي ، **المُقتَبِس في أخبار بلد الأندلس** ، الجزء الثالث ، باريس ، ١٩٣٧ ، تحقيق ملشور أنطونية Melchor M. Antuna ؛ والقسم المطبوع في بيروت (١٩٦٥) ، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي .

٨ – إبن الخطيب ، **أعمال الأعلام** (القسم الأندلسي) ، تحقيق ليفي بروفنسال ، بيروت ، ١٩٥٦ .

٩ – إبن خلدون ، **العِبَر** ، بيروت، ١٩٥٨ ،الجزء الرابع .

١٠ – إبن دِحيَة الكلبي ، **المُطرِب من أشعار أهل المغرِب** ، تحقيق ابراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد وأحمد أحمد بدوي ، القاهرة ، ١٩٥٤ .

١١ – إبن سعيد المغربي ، **المُغرِب في حُلى المَغرِب** ، تحقيق شوقي ضيف ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، الجزء الأول .

١٢ – ابن عِذاري ، **البيان المُغرِب في اخبار الأندلس والمَغرِب** ، الجزء الأول والثاني ، ليدن ، ١٩٤٨ – ١٩٥١ ، تحقيق كولان وليفي بروفنسال ؛ الجزء الثالث ، باريس ،

١٩٣٠ ، تحقيق ليفي بروفنسال .

١٣ – إبن فضل الله العمري ، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار** ، تحقيق أحمد زكي باشا ، القاهرة ، ١٩٢٤ .

١٤ – إبن القوطية ، **تاريخ إفتتاح الأندلس**، طبعة عبدالله أنيس الطبّاع ، بيروت ، ١٩٥٧ .

١٥ – أبو زهرة (محمد) ، **ابن حزم** ، القاهرة ، ١٩٥٤ .

١٦ – أرسلان (شكيب) ، **الحُلل السُندُسِيّة في الأخبار والآثار الأندلسية** ، فاس ، ١٩٣٦ ، الجزء الأول .

١٧ – الأفغاني (سعيد) ، **إبن حزم الأندلسي** ، دمشق ، ١٩٤٠ .

١٨ – بالنثيا (آنخُل جنثالث)، **تاريخ الفكر الأندلسي**، ترجمة حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

١٩ – بامات (حيدر) ، **دَوْر المسلمين في بناء المدنية الغربية** ، جنيف لا سنة للطبع .

٢٠ – البكري (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز) ، **جغرافية الأندلس وأوروبا** ، من كتابه « **المسالك والممالك** »، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي ، بيروت ، ١٩٦٨ .

٢١ ـ الحاجري (طـه) ، **ابن حزم صورة أندلسية** ، القاهرة ، لا سنة للطبع .

٢٢ ـ حتي (فيليب) ، **تاريخ العرب** (مطول) ، بالاشتراك مع أدورد جرجي وجبرائيل جبور ، بيروت ، ١٩٦٦ ، الجزء الثاني .

٢٣ ـ الحُمَيْدي (أبو عبدالله محمد) ، **جذوة المُقْتَبِس**، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة ، ١٩٥٢ .

٢٤ ـ خليفة (عبد الكريم) **ابن حزم الأندلسي** (حياته وأدبه) ، بيروت ، ١٩٦٨ .

٢٥ ـ **دائرة المعارف الاسلامية** (الترجمة العربية) ، الجزء الأول ، القاهرة ، ١٩٣٣ .

٢٦ ـ رينو (جوزيف) ، **تاريخ غزوات العرب** ، ترجمة شكيب أرسلان ، بيروت ، ١٩٦٦ . والكتاب أصلاً بالفرنسية وهو مترجم إلى الانجليزية (انظر ص ٤٧ من هذا الكتاب) .

٢٧ ـ الزِرِكلي (خير الدين) ، **الأعلام**، القاهرة، ١٩٥٩، الجزء الأول والخامس .

٢٨ ـ سالم (السيد عبد العزيز) ، **تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس** ، بيروت ، ١٩٦٢ .

٢٩ ـ الشريف الإدريسي، **نُزْهَة المُشتاق في اختراق الآفاق** (قسم منه) روما ، ١٥٩٢ .

٣٠ ـ شيت خطاب (محمود) ، **قادة فتح المغرب العربي** ، بيروت ، ١٩٦٦ ، الجزء الأول .

٣١ ـ صاعد الأندلسي ، **طبقات الأمم** ، تحقيق الأب لويس شيخو اليسوعي ، بيروت ، ١٩١٢ .

٣٢ ـ عاشور (سعيد عبد الفتاح) ، **المدنيـــة الاسلامية واثرها على اوروبا** ، القاهرة ، ١٩٥٠ .

٣٣ ـ العَبّادي (عبد الحميد) ، **صور وبحوث من التاريخ الاسلامي** ، القاهرة ، ١٩٥٣ .

٣٤ ـ عباس (إحسان) **تاريخ الأدب الأندلسي** (عصر سيادة قرطبة) ، بيروت ، ١٩٦٠ .

٣٥ عبد البديع (لطفي) ، **الاسلام في إسبانيا** ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

٣٦ ـ العذري (أحمد بن عمر بن أنس) ، **نصوص عن الأندلس** ، تحقيق عبد العزيز الأهواني ، مدريد ، ١٩٦٥ .

٣٧ ـ عِنان (محمد عبدالله) ، **تراجم إسلامية شرقية وأندلسية** ، القاهرة ، ١٩٤٧ .

٣٨ – عِنان، **دولة الاسلام في الأندلس**، القاهرة، ١٩٦٠، جزءآن .

٣٩ – عنان، **الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال**، القاهرة، ١٩٥٨ .

٤٠ – عِنان، **نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين**، القاهرة، ١٩٥٨ .

٤١ – فرّوخ (عمر)، **العرب والاسلام في الحوض الغربي من البحر المتوسط**، بيروت ١٩٥٩ .

٤٢ – الكتّاني (ابراهيم محمد)، «هل أثّر إبن حزم في الفكر المسيحي» منشور في مجلة (**البيّنة**) التي تصدر في الرباط (المغرب)، ١٩٦٢، العدد الثاني .

٤٣ – لوبون (غوستاف)، **حضارة العرب**، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة ١٩٥٦ .

٤٤ – لين بول (استانلي)، **العرب في اسبانيا**، ترجمة علي الجارم، القاهرة، ١٩٦٠ .

٤٥ – محمود (حسن أحمد)، **قيام دولة المرابطين**، القاهرة، ١٩٥٧ .

٤٦ – المراكشي (عبد الواحد)، **المُعْجِب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة ١٩٦٣ .

٤٧ – المَقَّري، **نفح الطيب**، طبعة محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٤٩، الأجزاء: الأول والثاني والثالث والرابع .

٤٨ – مؤنس (حسين) **فجر الأندلس**، القاهرة، ١٩٥٩ .

٤٩ – النُبَاهي (أبو الحسن عبدالله)، **تاريخ قضاة الأندلس**، نشر ليفي برفنسال، القاهرة، ١٩٤٨ .

٥٠ – هونكه (زيغريد)، **شمس العرب تسطع على الغرب**، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، بيروت، ١٩٦٤ .

٥١ – ياقوت الحموي، **معجم البلدان** (طبعة: دار بيروت – دار صادر)، بيروت، ١٩٥٧، الجزء الثالث .

ثانياً – **المصادر الأجنبية** :

I - De Urbel (F. J. P) *Historia de Espana*, vol. VI, *Espana Cristiana* (ed. R.M. Pidal), Madrid, 1956 .

2 - Dozy (R,), *Spanish Islam*, Eng. tr. F. G. Stokcs, London, 1913 .

3 - Imamuddin (S. M.), *A Political History of Muslim Spain* Pakistan(Dacca), 1961 .

4 - Lévi - Provençal (E.), *La Civilisation Arabe en Espagne*, Paris, 1961.

5 - Lévi - Provençal, *Histoire de l'Espagne Musulmane*, Paris, 1950, vols. I-II.

6 - Liudprand, *The Works of Liudprand of Cremona*, Eng. tr. F. A. wright, London, 1930,

7 - Oliver Y Hurtado (Manuel), *Discursos*, no. 2, Real Academia de la Historia, Madrid, 1866, vol. III.

للمؤلف

١ – تحقيق ودراسة لكتاب « **المقتبس في أخبار بلد الأندلس** » . للمؤرخ الكبير إبن حيان القرطبي ، المتوفى سنة ٤٦٩هـ / ١٠٧٦ م . طبع ضمن سلسلة « المكتبة الأندلسية » ، ١٩٦٥ ، رقم ٤ ، تصدرها « دار الثقافة » في بيروت .

يتحدث هذا الجزء من « **المقتبس** » عن خمس سنوات (٣٦٠–٣٦٤ هـ / ٩٧٠–٩٧٤ م) من أيام الحكم الثاني، المستنصر بالله (٣٥٠–٣٦٦ هـ/ ٩٦١–٩٧٦ م) .

CRITICAL EDITION OF «**AL-MUQTABIS FI AKHBAR BALAD AL-ANDALUS**» BY IBN HAYYAN (d. 469 / 1076), Beirut, 1965. This volume, of «**AL-MUQTABIS**», discusses almost five years (360 - 4/970-4) of the Reign of AL-HAKAM II (350-66/961-76).

٢ – تحقيق ودراسة للنص الجغرافي المتعلق بالأندلس وأوروبا من كتاب « **المسالك والممالك** » تأليف الجغرافي الأندلسي الكبير « أبو عبيد البكري » (عبد الله بن عبد العزيز) ، المتوفي سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م .

ظهر هذا النص تحت عنوان « **جغرافية الأندلس وأوروبا**» في بيروت، ١٩٦٨/١٣٨٧ . قامت بنشره دار الإرشاد «للطباعة والنشر والتوزيــع » ، ص. ب : ٦٣٤٧ ، بيروت .

Critical edition of « **THE GEOGRAPHY OF AL-ANDALUS AND EUROPE** », from the Book **AL - MASALIK WAL - MAMALIK**»By Abû'Ubayd AL-Bakrî (d.487/1094) . Published Beirut , Dar Al-Irshad (P. o. Box 6347 , Beirut) .

٣ — « **أنْـدَلُـسِـيّات** » ، بيروت (دار الإرشاد) ،١٩٦٨.
وهو مجموعة بحوث ومقالات معظمها في التاريخ الأندلسي .

٤ — بحث عن « العَلاقــــات السياسية بين ثُوّار الأندلس واسبانيا المسيحية في الفترة الأموية » في مجلة «**الأبحاث**» تصدرها الجامعــة الأميركية في بيروت، السنة ١٨ — الجزء ١ ، آذار (مارس) ١٩٦٥ . نشر ـ مع تغيير ـ باللغة الانجليزية :

« Political Realtions between the Andalusian rebels and Christian Spain during the Umayyad period » , **The Islamic Quarterly** [Published by « The Islamic Cultural Centre » , Regent's

Lodge , 146 Park Road , London N. W. 8, England.] Volume X, Number 3 & 4,1386/1966.

٥ ـ بحث بالانجليزية عن :

« Intermarriage Beeween Andalusia and Northern Spain in the Umayyad Period », **The Islamic Quartley ,** Vol . XI, Nos. 1 & 2, 1387/1967 . ونشر بالعربية في كتاب « **أندلسيات** »

٦ ـ نقد ، باللغة الانجليزية ، لكتاب :

W. Montgomery Watt: **A History Of Islamic Spain** (Islamic Surveys 4) , E. U. P. , 1965 . In « **The Islamic Quarterley**» , Vol. X , Nos. 3 & 4 , 1966 . ونشر بالعربية في كتاب « **أندلسيات** »

٧ ـ بحث بالانجليزية :

« Two Unknown Embassies from Frankish Monarch to the Court of Cordoba duing the reing of Al - Hakam II » , **The Islamic Quarterley,**Vol. X, Nos. 1 & 2, 1386/1966 ·
ثم نشر بالعربية في « **مجلة كلية الآداب** » (جامعة بغداد)، المجلد العاشر ، ١٩٦٧ تحت عنوان : « سفارتان مجهولتان من ملك الإفرنج إلى بلاط قرطبة أيام الحكَم الثاني » .

٨ ـ بحث بالانجليزية :

« Christian States in Northern Spain During the Umayyad Period » , **The Islamic Quarterley**, Vol. IX, Nos. 1 & 2 , 1385 / 1965 .

٩ ـ بحث باللغة الانجليزية عن الرحالة الأندلسي (إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي الطُرْطُوشي) .

« Ibrâhîm Ibn Ya'qûb At-Turtûshî , Andalusian traveller » , **Islamic Culture** | Published by the Islamic Culture Board, Hyderabad - Deccan , India . | Vol. XL, No 1 Jan. 1966 .

١٠ ـ بحث بالانجليزية يتناول جانباً آخر من شخصية الرحالة الأندلسي إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي الطُرْطُوشي

« At-turtüshî, The Andalusian , traveller, and his meeting with Pope John XII» **The Islamic Quarterly,** Vol. XI , Nos. 3 & 4,1967 .

١١ ـ الموسيقى الأندلسية (يُعَد) .

١٢ ـ الحضارة الاسلامية في الأندلس (يُعَد) .

١٣ـ **Diplomatic Relations of Umayyad Spain with Western Europe** (In The Press).

١٤ ـ بحوث أخرى قادمة بالعربية والانجليزية والايطالية .

١٥ ـ مقالات متنوعة في عدد من الصحف العربية .

طبع على مطابع
دار لبنان
للطباعة والنشر
هاتف ٢٥٧٤١١-٢٩٤٢٠٤-٢٩٣٠٤٣
بيروت - لبنان - ص.ب ٥٦٢٠

٦٨/٣٣٠٠/١٥٦٢

STUDIES ON ANDALUSIAN HISTORY

by

Abdurrahman Ali El-Hajji

(B.A. , CAIRO UNIV. ; PH. D. CANTAB.)

Dar Al - Irshad

P. O. BOX 6347 BEIRUT

1388 / 1969